خريف لا ينتهي

عادل عبدالمجيد المالكي

رواية

الانتشار العربي

عادل عبدالمجيد المالكي

خريف لا ينتهي

رواية

مؤسسة الانتشار العربي

خريف لا ينتهي

رواية

عادل عبدالمجيد المالكي

مؤسسة الانتشار العربي
ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-9953-93-104-3

الطبعة الأولى 2018

خريف لا ينتهي

خريف لا ينتهي

عادل المالكي

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أبطال القصص الخيالية...
لستم خيالًا على الإطلاق ...

(1)

كان هاتان جودا يفكر كيف يلوذ بالفرار بعيدًا عن ملاحقة حاكم بلدة نيروت له قبل أن يقتحم بيته شرطيّان ضخمان يقودانه إلى حيث ستتم محاكمته وإعدامه فورًا.

لم يقاوم الشرطيين بأي شكل، بل على العكس فقد مدّ يديه بهدوء ليضعا بهما القيود، ثم سار بتثاقل إلى عربة تجرها الخيول، أركباه العربة وهما يتمتمان بشتائم لا حصر لها، ثم سارا سريعًا.

كان ينظر إلى الطرق المزدحمة بالصبية الذين يلاحقون العربة، وإلى النساء اللاتي يشرن إليه بسخرية وهو مقيّد، لكنه لم يفكر في كل ذلك. كل ما كان يشغل باله هو المستقبل الذي ينتظره بعيدًا، هناك في جزيرة سوبرات النائية التي لا يعرف طريقها إلا القليل من البشر، مكتظة بالأشجار والغابات والوحوش والأساطير والأسرار، وقد رسم خلال اقتياده إلى السجن خطته بالكامل وانتقاله عبر البحر إلى هناك.

لم تكن هذه البلدة، نيروت، في نظر هاتان إلا مزبلة للحاكم الذي بنى قصرًا عظيمًا في جنوب البلدة التي تعود تبعيتها لإمبراطورية لام العظمى. لكن سانتي حاكم نيروت

كان يتمتع بحكم مستقل لبلدته دون تدخل من الإمبراطورية إلا في حالات الحرب الشاملة أو الكوارث الطبيعية، لذا كان استبداده طاغيًا وثروته فاحشة لكنه مع ذلك محبوب لدى الشعب لأنه كان يغدق عليهم العطايا والأموال ويقيم الاحتفالات يوميًا في مزرعته الكبيرة داخل القصر. ومع ذلك فإن مجموعة من الشعب لم ينخدعوا بإغراءات المال وكانوا يدركون تمامًا أنه حاكم جائر يقسو على كل من يعارض أمره، حتى أنه كان يمنع الخروج والدخول إلى البلدة تمامًا إلا في البعثات الرسمية التي تتصل بالإمبراطورية، وهو ما جعل المعارضين يقبعون عقودًا من الزمن دون مهرب، ثم يُزج بهم في السجون أو يُبادون في مقابر جماعية لا يعلم عن وجودها أحد، وكانوا يقولون لعائلات المفقودين أن أبناءهم قتلوا في الحرب.

لكن بعض الأمهات كنّ وبطريقة غير مفهومة يتصلن روحيًا بالأبناء في السجن، وكنّ يصحين في بعض الليالي على وقع كوابيس محيّرة، يخشين الحديث عنها، إلا في الليالي الممطرة حيث ينحبس الأهالي في البيوت وتبدأ حكايا الأساطير تتسرب على ألسنة أمهاتٍ يدركن أن أبناءهن أحياء في أماكن أخرى.

كان هاتان قد بلغ الخامسة عشرة حين وصله خبر موت أبيه جودا في الحرب، وقد شعر بغضبٍ عارم تجاه من تسبب بموته أيًا كان، لكن ذلك لم يكن إلا مقدمة بسيطة لما يمكن أن يحدث له. ورغم أنه لم يدرك في صغره سبب الرحيل المفاجئ لأبيه وموته بعد ذلك، إلا أن هاتان لم يزل يتذكّر

تمامًا وجهه الباسم حين اقتاده الجنود زاعمين أنه سيذهب إلى الحرب، فصنع ابتسامة أبيه نفسها بعد سنوات وهو يقطع شوارع البلدة متجهًا إلى السجن القابع خلف قصر الحاكم والمحاط بمئات السجانين الأشداء، ثم يجتاز ثلاث نقاط مراقبة وأربعين شرطيًا وعشرة كلاب وابتسامته لم تزل تبدو جديدة كما كانت.

انتهى أخيرًا من إعداد خطته للهرب لكن قلقه الوحيد تركز في أمه سيرينا غوران التي لن تعرف بذلك، وستخبرها السلطة كغيرها من الأمهات أن ابنها مات في الحرب، وقد تنتابها الكوابيس المخيفة نفسها، وتضمحلّ روحها حزنًا بعد فقد زوجها وابنها. أما ابنها الآخر بافات جودا فقد دخل السجن في اليوم التالي بعد اعتراف هاتان أنه شريكه في خطة إسقاط الحكم. كان بافات غاضبًا لما فعله به أخوه، غير أنه سيكتشف فيما بعد أنه قدّم له خدمة العمر.

كان كل يوم يمضي في السجن يعدّ أمرًا جيدًا بالنسبة إلى الأخوين جودا رغم التعذيب القاسي الذي ينالانه بدءًا بشتم أمهما سيرينا وتهديدهما كل ليلة باغتصابها، وليس انتهاءً بالحلقة المجوفة التي هي آلة خشبية ذات تجويف صغير يتم التعذيب بها أسبوعيًا حيث يدخل فيها نصف الجسد ثم يتم تضييق التجويف حتى تصاب أضلاع الصدر برضوض وكدمات مريرة، وكان الأسبوع يمر على من كُتب عليه هذا العقاب بطيئًا ومليئًا بالألم حتى إذا بدأت الرضوض بالتعافي جاء الأسبوع الجديد ليبدأ العقاب مرة

أخرى. وقد تناهى إلى سمع الأخوين جودا الكثير من حالات الانتحار بسبب هذا العقاب، فكانت طريقة الانتحار سريعة، حيث يوجد في زاوية إحدى ردهات السجن شرفة مفتوحة عمدًا ومطلّة على وادٍ عظيم يحفّز اليائسين على القفز والموت سريعًا بدلًا من انتظار موتٍ لا يأتي.

كان بقاء الأخوين تحت التعذيب يعني عدم قتلهما مثلما أشيع ساعة القبض على هاتان، بل إن البعض أقسم أن الحاكم سينفذ حكم الإعدام بيديه، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث.

على غير المعتاد، وفي حين كان اليائسون يتدافعون عبر شرفة الموت التي يبلغ عرضها خمسة أمتار، كان الأخوان جودا يجلسان في ركن من الشرفة ينظران إلى الأجساد الساقطة بتعجب، الجثث المكومة في الأسفل على بعد عشرات الأمتار، الغربان التي تحلق في الأعالي بانتظار موت جديد، صرخات اليأس وشتم الحاكم قبل القفز، ثم ترديد ثيمة المقاومة التي تعارف عليها المساجين أثناء القفز: (نموت وتحيا نيروت). لكن هذه الأحداث الساخنة لم تمنع هاتان من النظر بعيدًا خلف أكوام الجثث وخلف الوادي العظيم، حيث كان يشاهد البحر على الضفة الأخرى للوادي.

وفي حين كان البحر يشكل نقطة الأمل لهاتان وأخيه، كان الآخرون يشكون في وجود شيء بعد ذلك الوادي، حيث أن الوادي الذي يصل عرضه إلى ثلاثين كيلومترًا، يجعل

البحر الذي خلفه يبدو كالسراب، لكنه كان واضحًا جدًا لهاتان حتى أنه أقسم مرة أنه رأى مركبًا يسير على شاطئه ما جعل عامال سورخي يتهمه بالجنون ويؤكد له أنه على الرغم من حدة نظره فإنه لا يرى في نهاية الوادي إلا الهلاك.

كان عامال سورخي من المعارضين الأحداث حيث بلغ آنذاك السابعة عشرة، وهو عمر بافات جودا نفسه، أما هاتان فكان يكبرهما بأحد عشر شهرًا، وهو زمن منطقي لجعله قائدًا في التنظيم السري الذي شكّله الثلاثة بعد لقائهما بشهرين. ورغم تخوف عامال من فكرة التنظيمات السرية إلا أن الفضل يعود إليه في تشكيل التنظيم السري، حيث أن الأخوين جودا كانا يعتزمان العمل وحدهما بسرية تامة حتى آخر المطاف.

لكن الأمر كان يحتاج إلى المزيد من الرجال، فالكسور في أضلاع الأخوين جودا تجعل عملهما بطيئًا جدًا، لذا اقترح عامال إخبار زميل زنزانته تركوت الذي يقاربه عمرًا بخطة الهروب. تحمس تركوت كثيرًا للفكرة حتى أنه كاد يفضحهم عدة مرات أمام السجانين لكثرة أفكاره المجنونة في الهرب ونشاطه العارم، وقد اقترح أن يربط ملابس وشراشف السجن بعضها ببعض على امتداد ارتفاع شرفة الموت نزولًا إلى الوادي ثم التسرب عبر البحر، لكنه نسي لتسرّعه أن جميع أسرّة السجن مصنوعة من الجلد القاسي وأن الشراشف والأغطية لا وجود لها في السجن،

وأن جلّ ما يلبسه السجين هو قطعة بالية من القماش بالكاد تستر عورته، لذا فقد ألغى الفكرة تمامًا وأبدى استعداده التام للعمل على أي فكرة أخرى يقرّها التنظيم.

كانت الأخبار تتفشى في السجن، وربما كان لبلاهة تركوت دور في ذلك، تيقن هاتان من ذلك حين اجتمع به الحكيم طوبيل وصاحباه نوسان وكيتان ـ وهم ثلاثة رجال أشداء في ثلاثينيات العمر ـ للحديث عن الأمر فأوجس هاتان خيفة وأنكر وجود أي تنظيم سري للهروب، بل أكد أنه على يقين أن الإفراج عن المساجين قد يكون قريبًا وبالتحديد خلال احتفالات المئوية الثالثة لتأسيس بلدة نيروت بعد أشهر. لكن الرجال الثلاثة عادوا في الأسبوع التالي وأكدوا له أنهم يريدون الهرب من هذا المكان، وأنهم مستعدون لعمل المستحيل من أجل ذلك، لذا لم يجد هاتان بدًا من مشاركتهم في الخطة وإطلاعهم على الأفكار الممكنة.

توالت الأيام في الترتيب لخطة محكمة إلى أن جاء ذلك المساء الذي اجتمع فيه أعضاء التنظيم السبعة حول طاولة العشاء بقيادة هاتان ونائبه بافات، وكانوا يتهامسون لتناقل الخطة فيما بينهم وباستخدام رموز لا يمكن توقعها، فقد رسم هاتان مثلًا خريطة السجن عبر ترتيب حبات الأرز لتشكل ممرات افتراضية، ثم استخدم ملعقة خشبية لتحديد المكان الذي سيهربون منه بالضبط. كان العمل يتم بإرشاد من الحكيم طوبيل الذي كان أكبر الأعضاء سنًا وأكثرهم خبرة ومعرفة بالسجن لمكوثه عشر سنين معتقلًا،

حتى أنه عقد بعض الصداقات مع سجّاني التعذيب فأعفاه ذلك من التعذيب الأسبوعي ولم يكن يعاني سوى من آلات التعذيب الشهرية التي تسمى بالجمر الحارق، حيث يتعرض السجين في بداية كل شهر لاختبار المشي على الجمر مسافة عشرة أمتار، وهو ما يعدّه بعض السجناء تسلية وتقوية للجسد لتحمل أدوات التعذيب الأخرى.

كان طوبيل يستخدم نفوذه لجعل المسؤولين عن الغذاء يزيدون من كمية الغذاء التي يأكلها يوميًا فقد كان ذا كرشٍ عظيم ولا يشبعه فتات السجن أبدًا، لكن رغبته أخيرًا في زيادة طعامه لم يكن سببها شهيته الزائدة بل كان بسبب ما يضعه السجان له من زيادة في أدوات الطعام من أطباق وملاعق حديدية سميكة، وكان يسرق ملعقة واحدة فقط من كل وجبة غذاء حتى لا ينتبه أحد إلى هذا، ولذا فقد احتاج إلى ستة أشهر لجمع كمية مناسبة من الملاعق.

أما الماكر كيتان فقد كان يتعمد إثارة بعض المشاكل ما استدعى على الدوام وجوده في غرفة ذات تقنيات تعذيب متقدمة تدعى غرفة الكهرباء يتم فيها تعذيب المساجين عن طريق الصعق والكي والحرق وهو ما خلف تشوّهات جسيمة في جسده كله سيتذكرها بعد سنوات عندما يعاني في آخر أيامه آثار الكهرباء الجانبية في جسمه. كان يستغل غفلة السجّانين وانشغالهم بتعذيب آخرين لتشغيل آلة اللحام التي يتم استعمالها ضمن أدوات التعذيب فيقوم في كل زيارة بإعادة تشكيل الملاعق التي في حوزته بطريقة ماهرة وسريعة ثم يدسها في سرواله الداخلي، وعندما يعود

في كل ليلة يسلّم الملاعق إلى بافات الذي كان خبيرًا في الحفر، فيقوم بتخزين الملاعق في فجوة أحدثها بسكين طعام تحت سريره حتى تكومت الملاعق فتم إيقاف الخطة أسابيع حتى يقوم بحفر فجوات أخرى في أماكن متفرقة لإخفاء الملاعق.

ولأن العملية أصبحت أكثر بطئًا فقد استغرق لحام وإخفاء الملاعق سنة كاملة، تناوب فيها كيتان وصاحبه العالم نوسان على التعرض للصعق، وتولّى بافات إخفاء أدوات الهروب، واستطاع عامال وتركوت مساعدة الجميع وسد النواقص والتعرض للتعذيب لتشتيت الأنظار، أما هاتان فقد انتهى خلال هذه الفترة من رسم بقية الخطة ومعرفة نقطة البدء المناسبة.

لم تصدّق الأم سيرينا غوران لحظة أن ابنيها قد ماتا، فكرت في ذلك وهي تتأمل السماء بعد انتهاء احتفالات المئوية الثالثة لتأسيس نيروت التي شاع خلالها أن الأبناء المختفين في الحرب سيعودون إلى الاحتفال. لكن يا لخيبة أملها عندما مرّ شهر الاحتفال الذي قضته جالسة أمام عتبة دارها وبيدها إكليلان من الزهور دون عودة هاتان وبافات. ومع ذلك، لم تفقد سيرينا يقينها قط رغم أنها ذوت حزنًا وتجعّد وجهها الأربعيني قبل أوانه.

وفي تلك الليلة الموعودة، قامت الأم فزعة بعد تعرضها لأحد الكوابيس وهرعت إلى شرفة المنزل تحدّق إلى مكان بعيد من البلدة النائمة. أيقنت أن شيئًا ما يحصل الآن، لكنها لم تتوقع قط أن هاتان وبافات كانا يقفان على شرفة الموت في اللحظة نفسها بعد أن أتمّا عامًا ونصف العام في السجن يخططان وينفذان ما ستروبه لاحقًا الكثير من النساء لأولادهن في قصص ما قبل النوم وما سيتفاخر بإجادة حكايته الكثير من الرجال في اجتماعات الشاي لأجيال متعاقبة.

كانت الخطة بسيطة وخطيرة حد الموت حيث استطاع

التنظيم السري صنع سلسلة من الملاعق الحديدية التي يتم وصلها بعضها ببعض عبر الثقوب التي تم إحداثها في رأس الملعقة الدائري وثنيها من الطرف الآخر، ثم إلقاء سلسلة الملاعق خفية أسفل الشرفة على امتداد جدار السجن نزولًا إلى الوادي على امتداد خمسين مترًا. في تلك الليلة الهادئة وقبيل طلوع الفجر تم تثبيت السلسلة والتأكد من ثباتها، حتى أنه تم تجربتها على أحد اليائسين الذي نزل عشرين مترًا قبل أن يختل توازنه ويسقط صريعًا فوق الجثث.

لم يعرف أحدٌ بأمر السلسلة.

حتى عندما انتبه أحدهم إلى وجودها بعد أن قفز منتحرًا وصاح بأعلى صوته:

ـ سلسلة الخلاص!

لم يأخذ أحدٌ تلك الصرخة على محمل الجد.

وعندما حان الوقت، تتابع خروج أعضاء التنظيم إلى شرفة الموت. وكان أن أشفق تركوت على بعض أصدقائه فصاح فيهم وهو خارج:

ـ اهربوا معنا، تعالوا.

قفز هاتان إلى السلسلة وكان عليه التزحلق سريعًا لكيلا تنفرط سلسلة الملاعق ثم قفز أعضاء التنظيم في ثوانٍ بإشراف بافات الذي رأى السجانين يهرعون إلى الشرفة، وعندما وصل دور تركوت في النزول أمسك به أحد السجانين فاضطر بافات أن يدفعه بعيدًا لكن لسوء حظه فقد سقط السجّان وهو ممسك بتركوت فوقعا معًا وماتا في الحال.

استطاع هاتان السقوط فوق الجثث بشكل انسيابي لم يهشّم له سوى عدة أضلاع، أما بقية أعضاء التنظيم فقد تدحرجوا على ضفة الوادي وسقطوا بشدة بعضهم فوق بعض بعد انقطاع الجزء السفلي لسلسلة الملاعق ما تسبب بأضرار أقوى سيعانون منها في الأيام اللاحقة، لكنهم ولحسن حظهم نجوا من الموت. في الوقت نفسه كان بافات يصارع العديد من السجانين ويدفعهم من شرفة الموت حتى قيل في الأساطير اللاحقة أنه رمى عشرين سجانًا قبل أن يطعنه أحدهم بحربة بندقيته ليرمي بنفسه إلى السلسلة المتآكلة وهو يصيح: (نموت وتحيا نيروت!).

لم يصدّق هاتان نفسه وهو يحوم بين الجثث ويصرخ:

ـ لقد فعلناها، أخيرًا.

أخذ يعانق أصحابه ويعدّهم:

ـ طوبيل، كيتان، نوسان، عامال، أين تركوت؟ أين أخي بافات؟

جنّ جنون الجميع وبدأوا البحث بين الجثث القريبة. لم تمرّ نصف ساعة حتى وجدوا جثة تركوت على مسافة عدة أمتار حملوها وهم يشيرون إلى هاتان أن يلحقهم.

ـ لقد مات أخوك، تعال معنا قبل أن يقبض علينا أحد.

ـ اذهبوا وسوف ألحق بكم.

لم تمض دقائق حتى وجد بافات متكومًا بين الصخور، حمله ولحق بالبقية عبر وادي الموت المملوء بآلاف الجثث المتكومة عبر السنين، كانت الغربان تراقبهم

أملًا في نهش جثثهم بعد موتهم، لكن ما حصل هو أنهم واصلوا السير عشرات الكيلومترات حتى داست أقدامهم مياه الشاطئ بعد رحلة مضنية استمرت ساعات طوالًا.

انبطح الجميع على حافة الشاطئ وهم بالكاد يتنفسون، تحملت أجسادهم خلال هذه المهمة الكثير من الأهوال لكنهم في النهاية فعلوها. الأضلاع المتكسرة، الأنفاس المتقطعة، الهلع، كلها أمور بالإمكان علاجها. كانت جثتا بافات وتركوت ترقدان إلى جانبهم، لكن هذا لم يمنع البعض من الضحك بصوتٍ عال فرحًا بالهرب. تدارك هاتان الأمر ونقل الجثث خلف عدة صخور تتوسد التراب. وضع أخاه على التراب بحزن وهو ينظر إلى عينيه الشاخصتين، لم يرَ فيهما موتًا بل خيّل إليه أن روحه لاتزال في جسده لذا قرر أن ينقله معه. قال الجميع أنه يحسن بهم الإسراع في دفن جثث أصدقائهم قبل أن تتعفن لكن هاتان رفض الأمر مطلقًا وأعلن أنه لن يدفن أصدقاءه إلا في جزيرة الأحلام سوبرات، وتعهد بتولي أمر الجثث بنفسه.

ألقى الأصدقاء نظرة على شرفة الموت، كانت تبدو بعيدة جدًا، لكنها لا تزال في مجال الرؤية. سأل طوبيل:

ـ هل تعتقدون أن أحدًا يرانا من هناك؟

أجاب كيتان بالنفي.

لم يعتقد أحد منهم أن قوات البلدة بأسرها تبحث عنهم، وأن حاكم البلدة طلبهم أحياء وأرسل جنود البحرية

من الضفة الأخرى لتقبض عليهم. لذا فقد خلد كيتان إلى النوم مع صاحبيه طوبيل ونوسان، ودخل عامال عميقًا في الشاطئ بحثًا عن سمك يقتاتون به، أما هاتان الذي كان جالسًا في جوار الجثث فقد خطر له أن الوضع غير آمن على الشاطئ، لذا فكر في استخدام الخشب وسيلة للتنقل عبر البحر. لم يستطع المكوث أكثر من ذلك فنادى عامال الذي جرّ معه صفائح الخشب إلى داخل البحر.

دار نقاش حاد بين عامال وهاتان حول الجثث الملقاة فقد أصرّ عامال على تركها فيما رفض هاتان:

- إنه أخي، وهذا صديقك، لن أتركهما. أنا سأحمل بافات، واحمل أنت تركوت.

صاح هاتان بالجميع وهو ينقل الجثث بصعوبة:

- هيا، أنا راحل من هنا، من أراد أن يغادر معي فليأخذ لوحًا وليجدّف بيديه.

قام الثلاثة مذهولين من خطته، وحاولوا ثنيه بخطط أخرى مثل صنع قارب، لكن الأدوات اللازمة لم تكن متوافرة قط لذا فقد استجابوا بتثاقل فيما كان عامال وهاتان قد نقلا الجثث وجدّفا بعيدًا.

كان التجديف يزداد صعوبة كلما ابتعدوا عن الشاطئ، حتى أن الجثث بدأت تسقط في البحر ويتم انتشالها غير مرة، ما جعل عامال يصرخ غاضبًا:

- ما الفائدة؟ لقد ماتا. لماذا يجب علينا أن نموت معهما؟

لم يردّ هاتان فاستشاط عامال غضبًا وألقى بجثة تركوت وهو ينتحب:

ـ الوداع يا صديقي، سأذكرك دائمًا وسأبني لك قبرًا حين أصل.

ولم يفكر البتة في ما سيحصل له في سنوات متأخرة من حياته من متاعب وهو يتذكر استهانته بأرواح الموتى.

ذُعر هاتان لرؤية جثة صديقهم تطفو بعيدًا، كانت نظرة وداع حزينة، بكى بشدة لكن وجهه المبلل لم يكن ليظهر عليه أثر البكاء، التفت إلى جثة أخيه التي كان مُنتظَرًا أن يلقيها لتتبع بجثة تركوت لكنه لم يفعل، بل إنه زاد إمساكًا بها ولم يسمع أي مشورات بهذا الشأن. لم يكن هذا الأمر ليوقفهم عن المضي، ولم يكن شيء قط ليوقفهم عن الوصول إلى غايتهم حتى عندما لاحت سفينة أحد القراصنة من بعيد وهي تقسم البحر نصفين بمقدمتها الفارعة التي تعتليها سارية الجمجمة السوداء.

اقتربت السفينة شيئًا فشيئًا وهي تصوّب مدفعيتها لما ظنّته من وحوش البحر، لكن صفير وصراخ المجدّفين لفتا انتباه القرصان عابون إلى حقيقة الأمر، فأمر المدفعية بالتوقف واقترب حتى حاذاهم وانتشلهم واحدًا تلو الآخر مع عصابته التي تضع الأوشحة السوداء على الرؤوس.

ظنّ الجميع أن قتلهم سيكون على يد عصابة عابون بعد أن تقدّم وأمسك بذراعيه الغليظتين كتفي عامال وهو يصرخ:

ـ من أنتم وما الذي جاء بكم إلى منطقتي؟

التزم عامال الصمت وأغمض عينيه تفاديًا للزبد الذي صار يتطاير من فمه وهو يهددهم بالموت، لكن نوسان هتف فجأة:

ـ عابون، أنا نوسان العالم، لقد ساعدتك من قبل عندما جئت نيروت جريحًا، ألا تذكر؟

أفلت عابون من كان يمسكه، وبدأ يحك رأسه كي يتذكر ثم أشار بسبابته نحو نوسان وهو يبتسم:

ـ نعم، نعم، إنه أنت إذن؟

ثم عانقه وهو يقهقه ويقول:

ـ لا تخف سآخذكم إلى برّ الأمان.

كان نوسان لا يزال مرتبكًا من هول الموقف، وخائفًا من قدوم سفن نيروت، استفسر:

ـ هل هناك من يتعقبنا من جنود الحاكم؟

ـ ليست المشكلة في جنود سانتي، إن جميع القراصنة يبحثون عنكم الآن! أصبح لرؤوسكم ثمن غالٍ جدًا.

لم يعبأ هاتان بما قاله وأخذ عودًا من الأرض وبدأ ينقش في أرضية السفينة ما بدا أنه خريطة، وقال بثقة:

ـ هذا هو موطننا، هل لك أن توصلنا إليه؟

انحنى عابون وهو يتفحص الخربشات وتمتم:

ـ من هنا، بحر الظلام، نحو جزيرة بورتان، ثم إلى.. ما هذه الجزيرة؟ هل تقصد سوبرات؟

صاح الجميع: (نعم). وهو ما أثار تعجب العصابة قبل

أن يبدأوا القهقهة عاليًا حتى أشار إليهم عابون ليصمتوا، ثم قال ما عدّه حماقة شديدة بعد ذلك وأصبح مثارًا للنكتة بين رجال عصابته وهم يقطعون بحور الكون بحثًا عن حريتهم:

ـ إنها جزيرة ميتة! لن تستطيعوا العيش أكثر من أيام!

استنفر سانتي جيشه وأعلن جائزة كبيرة لعصابات البحر والقراصنة في حال تسليمهم له، لكن شيئًا من هذا لم يثنِ عابون العظيم عن إتمام وعده الذي قطعه لنوسان ورجاله عندما قال:

ـ سأوصلكم إلى سوبرات.

أصرّ عابون على إيصالهم بالرغم من تينك السفينتين اللتين هاجمتاهم واللتين كاد قائداها دوريان وفيجون يلتحمان بسفينة عصابة عابون. لكن ذلك لم يحدث، فقد انطلق عابون شاقًا البحر وهو يصرخ:

ـ دوريان، فيجون، يا لكما من أحمقين، أتتحديان عابون العظيم؟

كان طوبيل ونوسان وكيتان مستلقين في مكان آمن داخل السفينة وهما يلتهمان خبزًا باردًا وجدوه على الأرض، فيما بقي عامال يراقب المشهد، وسحب هاتان جثة بافات إلى الداخل وهو يقبّل بهدوءٍ جبينه ويقول:

ـ لا تقلق، سوف ننجو.

انسلّ عابون بسفينته من بين عدة سفن تخص حرس الحاكم حين اقترب من جزيرة نيروت، فيما صاح البقية:

ـ إنها نيروت، اهرب!

لكن عابون رفع يده عاليًا وهو يقول:

ـ الآن بدأت المغامرة!

ثم انطلق هاربًا من ثلاث سفن لحقتهم من شواطئ نيروت لتنضم إلى سفينتي دوريان وفيجون. وفيما بدا لوهلة أن جميع السفن تلاحق عصابة عابون، التفّت سفينتا دوريان وفيجون نحو حرس الحاكم وقصفتاهم بالبنادق والمدفعية حتى دكتا جميع من كان هناك، ثم واصلتا السير نحو سفينة عابون، وحينئذ أشار دوريان لمن حوله بخبث وقال:

ـ الآن لن يشاركنا أحد في نصيبنا من الجائزة، جدوهم أحياء، هيا.

لم تكن كل هذه الأحداث تشغل بال هاتان أو لم يدرِ عنها، كان يفكر في ما سيفعله بعد دخوله جزيرة الأموات، كانت جزيرة موحشة لا يقطنها أحد كباقي الجزر بل إنها تبعد مسيرة أيام عن أقرب جزيرة لها وهو ما عدّه الجميع منفّرًا وعدّه هاتان مثاليًا. كانت سوبرات غاصّة بالغابات والأشجار التي أشيع أنها غدت مرتعًا للوحوش والأشباح، فهجرها البشر، وظلّت لغزًا محيرًا مئات الأعوام لم يفك رموزه أحد.

انطلقت نيران دوريان وفيجون باتجاه سفينة عابون الضخمة لكن ما لم يتوقعاه هي تلك القوة العظيمة التي كان مدججًا بها، فقد ردّ على الهجوم بإطلاق قذيفتين

فقط، استقرّت كل قذيفة في قلب سفينة وشطرتها سبعين شطرًا. عاد القرصان عابون بسفينته تجاه بقايا الحطام ليجد ستين رجلًا طافيًا وتسعة رجال يجدفون بعيدًا ليهربوا. انطلق عابون نحوهم والتقط اثنين منهم، كانا دوريان وفيجون.

وفيما ترك عابون الرجال السبعة ليلقوا بعد ذلك بيومين حتفهم وهم يهيمون في عرض البحر على يد سمك القرش، أمسك القرصان بتلابيب الرجلين وصاح:

ـ لقد تجرأتما على عابون العظيم، ولتحن ساعة قتلكما.

ثم أمر رجاله فوضعوا السيوف على رقبتيهما، والجميع يقهقهون ويهللون فرحًا. لكن هاتان أفسد ذلك الاحتفال عندما انبرى لعابون وقال بصوتٍ مروّع:

ـ كفى! كفى قتلًا. لن يموت أحدٌ آخر اليوم!

ثم أزاح السيفين عن عنقي دوريان وفيجون وقال لعابون:

ـ أنا كفيلٌ بهذين، سأسجنهما في الجزيرة.

وهو الأمر الذي لم يدُر في خلد أحد أنه سيغيّر مجرى الأمور في سوبرات إلى الأبد.

سوبرات، تلك الجزيرة القابعة في منتصف محيط الظلمات، الموحشة حد الموت، والممتلئة بالوحوش والأشباح والغموض، لم تكن في نظر هاتان إلا جنّة عدن، تأكد من ذلك تمامًا حين وطئت قدمه الساحل لأول مرة عند

الخامسة مساء من إحدى ليالي تشرين، ذلك الخريف الرهيب الذي لم ينسه هؤلاء الرجال يومًا، وسيظلون بعد كل ما حدث يتذكرون تمامًا تلك اللحظة المفصلية حين امتزجت أقدامهم المبتلة بطين الساحل الطري والبارد والذي لامست طراوته قلوب الجميع وأبقت ذكرى كل ما حصل ندية إلى الأبد.

(2)

لم تكن أشجار النخيل ذات الجذوع المناطحة للسماء هي وحدها التي أدارت رؤوس الجميع إلى الأعلى، فأسراب الطيور البهية خطفت الأبصار بألوان لم يعهدها البشر في مكان آخر، والقردة التي احتلت أعالي الشجر أخذت تنظر بحنق إلى الدخلاء الجدد، وهو أمر أثار التردد في نفوس البعض، رغم أن القردة تعتبر ملائكة رحمة بالنظر إلى ما ينتظرهم في الداخل.

استلقى البعض على رمال الشاطئ وهم ينتظرون أن يسترخوا قليلًا بعد كل ما قطعوه من بحار وأن يتركوا جراحهم لتشفى، لكن هاتان لم يُضع الوقت قط وأكمل مسيره وهو يصيح بالجميع:

- هيا! لدينا حياة جديدة لنبدأها. لدينا الكثير من الأمور لننتهي منها. لا وقت لنضيعه في الراحة، الليل يوشك أن يأتي، وإن لم نحتمِ فقد تفترسنا الوحوش والحيوانات الضارية بينما نحنُ نائمون.

كان هاتان يحمل جثة بافات على ظهره وهو يقطع غابات الجزيرة الجديدة ويسير في المقدمة وإلى جانبه عامال وخلفهما طوبيل ونوسان وكيتان ثم عابون ورجاله

وهم يقودون دوريان وفيجون اللذين سيذكران هذه اللحظة المهينة حتى آخر عمرهما. وما خفف الأمر عليهما طمأنة هاتان لهما بأنه لن يسمح لأحد بإيذائهما.

سار الجميع طويلًا قبل أن تتوقف الخطى عند باحة عريضة مرتفعة يلفها النخيل والشجر وتتساقط عليها خطوط أشعة الشمس من بين الجذوع الملتفة بشكل انسيابي. أشار هاتان إلى الجميع أن يجلسوا وهو يفكر كيف سيجعل من هذه الباحة مركزًا للمدينة التي يريد تأسيسها ولم يدرِ أن هذا المكان سيكون يومًا شاهدًا على سفك الكثير من الدماء وسقوط الكثير من الأجساد.

شرع الجميع في بناء أكواخ صغيرة للاختباء فيها، ولم تكن هذه الأكواخ سوى أجزاء من شراع سفينة قديمة وجده عابون مطروحًا على أرضية الشاطئ واستطاع شقه بسيفه الحاد إلى عدة أجزاء.

ذهب هاتان بعيدًا عن مرأى رفقائه ووضع جثة بافات أرضًا وهو يتمتم:

ـ أعلم أنك لم تمت، أعلم ذلك، لا يمكن أن تموت الآن.

ثم دخل إلى جوف الغابة التي بدت موحشة بعد أن بدأت الشمس بالنزوح. أخذ يقطف بعض الأعشاب والزهور وهو ينفّذ ما تعلمه ذات يوم بهيج مع أبيه جودا حين كانا يصنعان بعض الأدوية التي كان الأب يهرّبها إلى الثائرين ومن عذّبهم حرس نيروت. لكن أعشاب جزيرة

سوبرات كانت مختلفة ولم يستطع أن يجد فيها ما يبتغيه.

أكمل مشواره بعيدًا قبل أن يتوقف تمامًا عن الحراك وترتعد أطرافه حين سمع خشخشة أوراق قريبة وظلالًا سوداء تدنو نحوه بهدوء، فيما عمّ السكون أرجاء المكان وتوقف الزمن لحظات قبل أن يقوم هاتان بحركة مفاجئة ويخرج سكينًا مخبأة في كعب قدمه وينقض على ما خلف الشجر.

أمسك بما ظنّه جنيًا يحرس المكان قبل أن تلتقط أذناه تمتمة يائسة:

- لا تقتلني يا ابن أمي!
- من أنت!
- أنا.. أنا جبران.

رغم الحظ السيىء الذي واجه بافات حين كان يقاتل حرس السجن، لكنه كان محظوظًا كفاية ليحدث ذلك اللقاء بين هاتان وجبران، فقد هرع جبران لمعالجة بافات حين علم باحتضاره وجاءه يحمل أعشابًا سحرية عمل على تصنيعها سنوات كما يزعم. ويا للسحر الذي انطلق حين شرب من عشبة الوادي السفلي وعاد النبض إلى قلبه من جديد.

- أنت ساحر! ماذا فعلت؟
- أنا جبران، جبران الكاهن كما أخبرتك، عشت مع القردة، وشربت من لبن الوحوش، وتعلمت من سحر عفاريت الوادي السفلي. أنا حارس هذه الجزيرة وسيدها، لكنني قطعت وعدًا أن أكون خادمًا لمن يساعدني من الإنس في رحلتي.
- أي رحلة؟ ولماذا تتحدث هكذا؟
- أنتم البشر من ستدمروننا وأنتم طريقنا إلى الخلاص.

كان جبران الكاهن ذا شعر أبيض أشعث ولحية طويلة مختلطة السواد بالبياض، يلبس مئزرًا من جلد نمر، ويحمل

معه عصاه المدببة. يقسم أنه ابن قردة وأن عمره تجاوز المائتي عام، لكن هاتان دائمًا ما كان يؤكد للجميع أن عمره بالكاد لا يتجاوز السبعين. لم يُعرف قط كيف جاء إلى الجزيرة، وهل هناك من سكنها غيره؟ كل الأحاديث التي يعرفها البشر عن سوبرات كانت تؤكد أن كل من وطئت قدمه هنا لم يستطع المكوث أكثر من ليلة، ومات ميتة بشعة عندما عاد إلى وطنه بعد أن ذاق لعنة الجزيرة.

ـ سوف يظل هذا الرجل طريح الأرض مدة لا أعلمها، وإن كان محظوظًا فسيعيش بعد ذلك، خذه إلى مهجعي وسوف نرى ماذا يحصل.

قالها جبران وهو يمسك قدمي بافات ويسحبه ثم تمتم بكلمات غير مفهومة، فيما أمسك هاتان يديه وحملاه إلى مكان منحدر غير بعيد وكأنه كهف صغير لكنه مختفٍ بين شجيرات ونباتات متسلقة، ثم وضعاه على فراش من الجلد. لمح هاتان عيني بافات تلمعان وفمه يتحرك، اقترب منه ليسمع ما يقول، لكنه لم يقل سوى كلمة وحيدة:

ـ حذار!

التفت هاتان خلفه ولم يجد جبران، خرج من الكهف المتكسر ولم يجد أحدًا. عاد إلى بافات وقال:

ـ سوف أعود إليك، سأذهب لتحذير الرفاق وإعلامهم بما حدث ثم أعود فورًا.

لم يقل بافات شيئًا لكن عينيه اللتين كفّتا عن الرمش كانتا تحكيان الكثير. لكن هاتان لم يفهم ذلك، حتى عندما عاد بعد نصف ساعة مع بقية الرفاق وهو يقول:

ـ أقسم لكم أنه حيّ، لقد سقاه جبران من عشبة سحرية، انظروا بأنفسكم!

رفع بعض النباتات التي سدّت المدخل ثم أشار بيده إلى الجميع ليلقوا نظرة. كان بافات مستلقيًا كما تركه، وعيناه مفتوحتين ومرتعبتين كما كانتا. لكنه كان ميتًا!

صرخ عامال بحسرة:

ـ كفى يا هاتان، لقد بدأ سحر الجزيرة الملعونة يتلاعب بعقلك، دعونا نغادر هذا المكان، إنها لعنة.

ـ ليس سحرًا. لقد عاش بافات وتحدث إليّ! ألا تصدقونني؟

انفضّ الجمع وهم يقولون:

ـ لقد جنّ الرجل.

ـ هيا لنعد قبل أن يُسرق متاعنا الذي تركناه.

ثم رحلوا وتركوه منكفئًا يقبّل جبين أخيه وهو يقول:

ـ أعلم أنك لم تمت، مثلك لا يموت.

عاد البقية إلى مركز الجزيرة ولم يدُر في بالهم أنهم سيجدون خيمة دوريان وفيجون خالية حيث هرب القرصانان تاركين وراءهما خطوطًا مرسومة في الرمل قرأوها بصعوبة: (سننتقم). ضرب عابون الأرض بقبضة يده وهو يقول ما لم يفعله قط:

ـ الأوغاد! سوف أقتلهم يومًا ما!

كان هاتان لا يزال مستلقيًا إلى جانب أخيه والليل

لايزال في أوله، وكل ما سيحصل بعد ذلك سيجعل من هذه الليلة إحدى أطول ليالي حياته. أما بقية الرفاق فقد التزموا مواقعهم في مركز الجزيرة وانتشر أتباع القرصان عابون في الجوار للحراسة والبحث.

في البدء، لم يكن أحد على علم بما سيؤول إليه حال أشجار النخيل والموز على مشارف الجزيرة من ناحية الشرق والتي سيصبح كثير منها أثرًا بعد عين. أما في تلك الليلة الطويلة فقد استخدمت كأبراج مراقبة لأخذ نظرة علوية على الجزيرة ومحاولة العثور على الفارّين الذين اختفوا تمامًا حتى بعد ثلاث ساعات مضنية من البحث. كانت فرصة رائعة لاستكشاف ما وراء أحراش الغابة الغامضة رغم ما تخلل ذلك من أخطار عظيمة.

ترك الثلاثي طوبيل ونوسان وكيتان أماكنهم وراحوا يذرعون المكان معًا بحذر في الناحية الشمالية من الجزيرة، وقد زعموا أنهم قتلوا في تلك الليلة عشرة ثعابين وسبعين عقربًا وذئبين، ثم أسسوا في شمال الجزيرة ما أسموه نقطة حياة. وقد كانت هنالك خمس نقاط حياة في الجزيرة، وهي نقاط اتفق الرفاق على نصب أخشاب عالية فيها، ثم قام نوسان باستخدام معارفه لصبغ قممها بدماء بعض الحيوانات لتمييزها من بعيد، وهكذا كان كل من يضل الطريق باستطاعته الاستدلال على تلك النقاط التي تمركزت في أطراف الجزيرة الأربعة أما النقطة الخامسة فتم نصبها في منتصف الجزيرة. لكن أحدًا لم يعد يعير هذه الأنصاب بالًا في السنة التالية حيث أصبحت حوادث

الضياع نادرة ولذا فقد اتسمت أهمية هذه الأماكن بكونها مزارات تاريخية فقط للدلالة على أولى الخطوات التي بذلت في سبيل إعمار الجزيرة.

ترك هاتان أخاه مضطجعًا فاغرًا فاه وذهب ليرتّب أمور الجزيرة لكنه لم يجد أحدًا في المركز، وعوضًا عن ذلك وجد كلمة الانتقام منقوشة في جوار خيمة المساجين، فاستنتج هروبهما وذهاب البقية للحاق بهما، استغل ذلك سريعًا في تفحص حاجات رفاقه فلم يجد شيئًا ذا قيمة إلا خارطة مخبأة في جراب القرصان عابون كانت تحتوي على إرشادات هامة للإبحار، لكن ما رفع من قيمة هذه الخارطة وجود دلائل على صفائح ذهبية مخبأة في مكان ما أسفل هذه الجزيرة! تردد هاتان كثيرًا، لكنه أخيرًا خبأ الخارطة في جيب سرواله وغادر المكان.

انطلق يحوم في الأرجاء باحثًا عن نَفَس بشري يقتل سكون المكان، لكن أحدًا لم يقابله، فعزم على العودة إلى حيث يرقد بافات لكن الظلام الحالك صعّب كثيرًا من مهمته فاستراح تحت شجرة سنديان عتيقة عَلم فيما بعد أن عمرها لا يقل بأي حال عن ثمانمائة عام، وهو الأمر الذي جعلها ذات مكانة عظيمة لما تحمله من الأسرار بين ثنيات جذعها العريض الذي ينطح السماء أقله بطول ثلاثين مترًا. كانت الشجرة ملاذًا حسنًا لظهر هاتان المتعب. لكنه وعلى نحوٍ غريب بدأ يشعر بالتفاف بعض الأغصان عليه إلى حد عجزه عن الحراك، ثم خيّل إليه أن أشباحًا تتراقص في الهواء وتقترب شيئًا فشيئًا منه، بدأ ذهنه يتشتت وعيناه

تستسلمان للنوم ببطء لكن وخزة تلقّاها في كتفه من عودٍ خشبي كانت كافية لأن يقفز من مكانه وهو يسمع كلمات عابون:

- حذار، لا تستسلم لهذه الشجرة الملعونة، فقد سمعت عنها العجب، يقولون إنها ابتلعت في جوفها مئات البحارة، وإن جذورها تحت الأرض تمتد عدة كيلومترات.

تمتم هاتان بتثاقل:

- لم أستطع العثور على أخي، ساعدني واجعل جنودك يبحثون في الأرجاء.
- إنهم ليسوا جنودًا بل بحارة!
- لا فرق، هيا لنبحث، إنه في مكان ما هنا.

انتشر الجميع وبحثوا ساعة قبل أن يفشلوا تمامًا في العثور على شيء، استسلم هاتان للأمر وقال إنه سيبحث في وضح النهار غدًا، لذا فقد عاد إلى خيمته فيما أصر عابون أن يكمل البحث مع رجاله عن دوريان وفيجون.

في هذه الأثناء كان عامال قد عاد بعد رحلة بحث واستكشاف مضنية في جنوب غربي الجزيرة، وهو الجزء الذي لم يزره أحد باستثناء عامال حتى الآن، استلقى منهكًا إلى جانب هاتان وبدأ يحكي له ما وجده هناك وعيناه تلتمعان ببريق الأمل:

- لقد رأيت العجب يا صديقي! غابات هائلة وأشجار لا مثيل لها في أي مكان، ليس هناك أشباح ولا أي مما

يتحدث الجميع عنه، إنها جنة، سوف نعمّر هذا المكان معًا ونجعل منه مكانًا آمنًا يشع بالعدل والحضارة، إننا ستة أشخاص، وإذا ما أضفنا إلى ذلك جنود عابون التسعة، فسنبلغ خمسة عشر رجلًا. بإمكاننا أن نبني هذا المكان سريعًا إذا بدأنا من الغد.

تحمّس هاتان كثيرًا وشرع في التخطيط لما سيفعله فور طلوع الصباح رغم أن غصّة كانت لا تزال تتملّك قلبه لفقده بافات وخوفه أن تلتهمه وحوش الجزيرة. قفز من فوره وهو يقول لرفيقه:

ـ ستة عشر. سوف أعثر على أخي وسنصبح ستة عشر. نم يا صديقي وسآتي بعد قليل.

كان هذه المرة قد استعاد ذاكرته تمامًا وعرف إلى أين سيتجه بالضبط. سار شمالًا باتجاه شجرة السنديان ثم التف من عندها يسارًا بضع دقائق قبل أن يجد أمامه تلك النباتات المتسلقة التي اضطجع عندها بافات، لكن صدمته كانت شديدة وهو يعجز عن إزالة النباتات عن الكهف الذي تشابك بالأغصان وكأن أحدًا لم ينبشه منذ قرون. كان المكان بالكامل مغطى ما جعل هاتان يصرخ غضبًا ويضرب برأسه شجرة محاذية عدة مرات وهو يقول:

ـ ما الذي يحصل في هذا المكان الملعون؟

أُسقط في يده واستلقى إلى جانب الكهف قبل أن يمسكه أحدهم من الخلف وهو يقول بصوتٍ مألوف:

ـ قلت لك لا تخف، إنه نائم الآن!

كان جبران بعينه!

قفز هاتان من مكانه وأمسك بتلابيبه وهو يسأل عن مكان بافات:

ـ أين هو؟ هل قتلته؟

ـ أنت لا تسمع إطلاقًا، قلت لك لا تخف، سوف يعود إليك حين يتعافى، والآن اذهب من هذا المكان فورًا. إنك تعاني آثار داء السنديانة العملاقة. اذهب إلى رفاقك ولا تعد إلا عندما أخبرك بذلك. تنتظرك أيام شاقة في سوبرات.

ـ ومتى سأراك؟

ـ عندما يحين الوقت.

وثق هاتان بكلامه ورحل فعلًا عائدًا إلى مركز الجزيرة، وجد الجميع يغطون في سبات عميق في الوقت الذي بدأت أول خيوط الشمس الوصول. ألقى بنفسه ليغرق في نومٍ عميق استمر أربع ساعات.

كانت الجزيرة مختلفة تمامًا عندما استيقظ هاتان في التاسعة صباحًا وهو يشتم رائحة شواء عليلة على مقربة منه، رفع بصره فهاله منظر الأشجار المتنافسة في الطول وهي تحيط بهم من كل جانب، تتسلل من بينها أشعة الشمس لتشكل لوحة غالية الطراز وأصوات النوارس تنعق من بعيد معبرة عن سعادتها بالزوار الجدد.

وكأنه لوحة فنية، خلب المنظر البهيّ لبّ هاتان، الاخضرار اللامتناهي، الهواء الرطب الذي يمتزج برائحة المطر المتساقط بنعومة، رائحة الأرض العذبة. مشى قليلًا فانغرزت قدماه في الطين الممتزج بورق الشجر. جذور الأشجار الزاحفة في كل مكان والأزهار التي تفترش بعض الممرات مثل سجادة ملونة والأوراق الخضراء التي بلّلها الندى تجعل المكان شبيهًا بأحجية تنتظر الاكتشاف .

كان بعض من رجال عابون قد ذبحوا غزالًا وجدوه يتنزّه في الجوار وبدأوا بطهوه وهم يتفاخرون بذلك أمام قائدهم، وقد راح البقية يجرجرون جلودًا جلبوها من سفينتهم باحثين عن مياه عذبة، أما عامال فقد انتبذ مكانًا من الجزيرة وهو يخط في الرمل خطوطًا ويشرح باهتمام أمرًا ما لطوبيل ونوسان وكيتان.

اقترب هاتان منهم فأشار إليه عامال أن ينضم إليهم:

- اسمع يا هاتان، يجب أن نبدأ العمل بما خططنا له في السجن، إننا في الجزيرة، ولا ندري أي مصير ينتظرنا، لقد تجاوزنا أول ليلة لنا بنجاح وهو أمر نادر الحدوث، أنت المدبّر لهذا كله ونحن رهن إشارتك.

أنصت هاتان باهتمام إلى حديث الجميع، كانوا متفقين على قيادته لهم فوافقهم وبدأوا يرسمون المستقبل:

- أول ما سنفعله هو تنمية هذه البقعة من الجزيرة لتصبح مقرًا لنا نحتمي فيه من أي هجمات غير متوقعة ثم نوسع سيطرتنا على الأرض تباعًا.
- ولكن يا طوبيل هناك مساحات شاسعة ورائعة جنوبًا، إن مكاننا مكشوف هنا للحيوانات الضارية.
- أعلم ذلك يا عامال لكنها البداية، وهي أرض منبسطة ونستطيع البناء فيها فورًا دون عناء تقطيع الشجر، دعونا نبدأ.

قطع عابون حديثهم وهو يقول بسخرية:

- تخططون من دوني أيها الأنذال.

قام كيتان وأجلس القرصان مكانه وهو يقول:

- اسمع يا عابون لقد قررنا أن يكون هاتان هو قائدنا وأن تتولى أنت جانب الحراسة مع رجالك، فما قولك؟

ـ لا أستطيع، أنا عائد ورجالي اليوم، كانت مهمتي أن أوصلكم إلى هنا فقط.

اضطرب الجميع وهم يعترضون على قراره وحاولوا بطرائق شتى إقناعه إلى أن وافق على البقاء عدة أيام لتأمين الجزيرة، لكنه لم يعلم أن قراره سيؤثر في كل ما سيحصل لاحقًا وسيضطره للبقاء مدة أطول بكثير مما رسم في أسوأ أحلامه.

بعد قليل جاء بقية الرجال وهم يحملون أوعية كبيرة من الجلد يطفح من جنباتها الماء، كانوا مملوئين بالفرح لأنهم وجدوا العديد من العيون والأنهار في أصقاع الجزيرة، وهو ما يبشر بمزيد من الاستقرار والحياة. شرب الجميع بنهم ثم تناولوا قطعًا من لحم الغزال الذي ظلّوا مدة طويلة يقسمون أنه أجمل لحم تناولوه على الإطلاق.

كان صباحًا جميلًا لا يشوبه شائبة، حتى أن نوسان قال ضاحكًا:

ـ ألا تعتقدون أننا عندما نزلنا من شرفة الموت لقينا حتفنا ونحن نعيش الآن في الجنة؟

لكن صباحات سوبرات لم تكن دومًا جميلة، ويا للمساكين حيث لا يعرفون ما ينتظر الجميع من مفاجآت في صباح الثاني من يناير وهو أمر سيرهقهم لاحقًا. أما في الوقت الحالي فقد كان شغلهم الشاغل أن يلتهموا كل ما في هذا الغزال من لحم، ثم ليحصل ما يحصل.

(3)

قام هاتان بعد أن فرغ من الأكل واستعاد الجميع عافيتهم ونشاطهم فجمعهم وخطب فيهم:

ـ إنه يوم مفصلي في تاريخ سوبرات، ونحن على أعتاب الشتاء، لا بد لنا من العمل أو الموت منسيين. بصفتي قائدًا لكم، رأيت أن أعيّن مساعدًا لي وهو عامال. عابون سيكون رئيس فرقة الحراسة التي تتكون من هؤلاء البحارة العظام. أما طوبيل وكيتان ونوسان فهم اللبنة الأساسية وأصحاب الشورى. هذا التنظيم وضعناه للمستقبل، فإن اختلفنا فيما بعد ـ وسنفعل ـ عدنا إلى هذا الاتفاق. وإن جاء زوار جدد إلى الجزيرة ـ وسيجيء ـ ألزمناهم بهذا وإلا أعدناهم إلى حيث أتوا.

رفع هاتان يده المبسوطة إلى السماء فرفع الجميع أيديهم وهم متحلّقون حوله وقالوا بصوت واحد:

ـ تعيش سوبرات.

كانت كلمة شرف، لكن لا يجب أن يظنّ أحد أن الجميع سيلتزم بها، وإلا لما حدثت كل تلك الأحداث الرهيبة التي ستجعل من الجزيرة أرضًا خصبة للنزاعات كما هي أرض خصبة للأحلام الكبيرة.

إنها حياة جديدة أوجدوها بعد أن انسلخوا من أرض نيروت، تلك البلاد الحزينة، الموغلة في الوحشية. لم يكن هنا إلا الأحلام المخطوطة على الرمل في زاوية من زوايا باحة كبيرة أطلقوا عليها اسم مركز سوبرات. لكنها أحلام جديرة بالبقاء لا سيّما وأن الكل عزم على العمل بإخلاص لا تشوبه شائبة، هكذا كان البدء.

مرّ شهر من العمل بجدية إلى أن اكتمل عمران المركز، وكان مكوّنًا من بناية عالية تتوسط المكان تم استعمال الحجارة وعسبان النخيل وطين الشاطئ لتشييدها ومن ثم قام طوبيل بتزيينها بدماء الحيوانات التي كانت تذبح للأكل، أصبحت قلعة صغيرة بمساحة تحوي غرفة للاجتماعات وكراسي تم صنعها من الخشب وجلود الماعز، إلى جانب باب خلفي يفتح على بيت صغير مجاور يسكن فيه هاتان كان أجمل المباني وأهمها بعد قلعة سوبرات.

أما بقية الباحة فأقيمت بها عدة مبانٍ صغيرة لبقية الرجال وفناء واسع للماشية التي تم جمعها، وحاولوا تلقيح بعض الحيوانات وتهجينها بكل السبل لتتناسل وأهمها الماعز والغزلان والخراف والدجاج، ثم تم تطويقها بسورٍ طويل وزرعت الأشواك في أعلاه وإلى جانبه. وقد نجحت فكرتهم تمامًا فضاق الفناء بعد ذلك بالماشية ما جعلهم يفكرون في بدائل أخرى للتوسع.

كان عابون ورجاله قد عملوا على تطويق المكان بشكل آمن والحراسة المستمرة ليلًا ونهارًا بالتناوب حيث كان

الجميع يرتعبون دائمًا عند سماع زمجرة النمور والذئاب التي تحاول الدخول إلى المركز أحيانًا. لكن عامال الذي كان يتسلق الأشجار بخفة لينظر بعيدًا كان يقسم أنه لا يوجد في الغابات سوى نمرين وثلاثة ذئاب ويمكن القضاء عليها بسهولة.

اشتد البرد على سكان الجزيرة، ومع دخول الشهر التالي كانت الثلوج تتساقط والصقيع يزداد حتى أن طوبيل وكيتان ونوسان كانوا ينامون ملتصقين بعضهم ببعض لتدفئة أنفسهم في بعض الليالي وهو الأمر الذي جعل عابون يضحك ملء شدقيه وهو يقول:

ـ كفّوا عن مضاجعة بعضكم بعضًا. سوف آتي لكم بنساء قريبًا.

أما هاتان فكان يملك ثلاثة أغطية للتدفئة ما جعل حاله أفضل من البقية، وهو أمر لم يغضب أحدًا حيث كان الجميع يحترمه كقائد. لكنه كان مشغول البال دائمًا بأخيه الذي تركه ولم يرَ جبران مذ ذلك الوقت. كان اليأس قد تسلل إلى قلبه وندم كثيرًا أنه تركه وصدق ألاعيبه.

لكن وعلى نحو غير متوقع، حين كان يسير ذات يوم وحيدًا ليستكشف الغابة المجاورة وهو يحمل رمحه الخشبي، رأى جبران مقبلًا كسهم إلى أن وضع يديه على كتفي هاتان وقال:

ـ أتريد أن ترى أخاك؟

صرخ هاتان وهو يشد عنق العجوز جبران فسقط

أرضًا يتأوه، لكنه انتصب قائمًا وأعاد الجملة نفسها. حملق هاتان بغضب وردّ بالإيجاب فأخذه إلى الموضع نفسه الذي تركه به سابقًا وقال:

ـ غدًا تأتي هنا عند مطلع الفجر، وتحضر لي خشبة من تلك الخشبات المسننة التي تطلق الحجارة.

ـ أتقصد البندقية؟

ـ أيًا يكن اسمها، أحضرها غدًا واتركها هنا وسيأتيك أخوك عمّا قريب.

لم يكن أمام هاتان إلا أن يفعل ما أمره، فقد كانت عيناه لا تكذبان، إنها الحقيقة التي تجدها في بريق العين والتي لا يمكن أن تخطئها أبدًا. لكن بافات لم يعد، حتى عندما ترك له بندقية استلّها خفية من متاع الحرس، انتظر أيامًا ولم يأت أحد.

ظلّ يفكر في ما حصل. وأن يكون وحيدًا في ليلة شتاء يعني أنه سيفكر كثيرًا، وسيتخذ قرارات ربما تعني في المستقبل الشيء الكثير.

فكر أن يخبر رفاقه ليقوموا بالهجوم على مخبأ العجوز لكنه خشي أن يقتل أخاه إن فعل، كان يموج في تخرصات لا حدّ لها في ظهيرة دافئة من أيام ديسمبر الباردة، حتى أن عامال أحس بشروده الظاهر فلم يتركه حتى أخبره بكل شيء. رد عامال بهدوء:

ـ يا للمسكين، أما زلت في هذيانك؟ إنه ميت، لقد شهدنا موته جميعًا!

لم يصدقه عامال، ولا عابون ولا أي فرد من أفراد الجزيرة، فطلب منهم أن يقتحموا الكهف ليروا بأم أعينهم ما يقول، وهو الأمر الذي قام به الجميع على سبيل التسلية، حيث أزالوا التراب والأشجار والعوالق وهنالك رأوا مالم يتوقعه هاتان، الفراغ.

كان الكهف خاليًا إلا من بضعة عناكب وصراصير وقطع من ملابس بافات. أخذ هاتان ينتحب:

ـ ولكن إن كان ميتًا كما تقولون فأين رفاته؟ أين دُفن؟

إنه سر لا يمكن أن يكتشفه هاتان الآن، سيظل معلقًا وقتًا طويلًا مع العديد من الأسرار التي ابتلعتها الجزيرة خلال قرون.

بعد أسبوعين من العمل والصيد كانت ذخيرة القراصنة قد انتهت وأصبحت بنادقهم عديمة الجدوى فحولوها إلى رماح مسننة للدفاع عن النفس وهو أمر سيحتاجون إليه كثيرًا بعد ذلك وتحديدًا في مطلع العام الجديد حين تكشف لهم الجزيرة عن بعض أسرارها.

كان نوسان يتمشى في جنوب الجزيرة بعيدًا عن الجميع، حين رأى قطعة ذهبية تلتمع تحت أحد الأنهار، اقترب فوجدها قطعة ذهبية باهرة لم تفلح المياه المتجمعة في إزالة شعاعها الذهبي. كانت العملة التي تبدو قديمة وغير معروف أصلها مخبأة تحت صخرة صماء في النهر لا يظهر إلا طرفها، لكن نوسان التقطها بصعوبة وأخذ يتفحصها بذهول. كانت من مخلفات سكان الجزيرة

القدامى، مسكوك عليها صورة طائر محلّق ذي جناحين عظيمين، ومن الخلف وجد نقوشًا لا معنى لها. لم يهمه ذلك، إنها غنيمة كبيرة لا يجب أن يحصل عليها إلا من اكتشف وجودها. خبأها في جيبه وهمّ بالعودة لكنه عثر بحجر مدبّب فسقط في جوف النهر!

كان النهر ذا عمقٍ متوسط وهو ما حال دون اصطدامه بالحجارة القاسية التي تتوسد أرضه، لكن ذلك لم يمنع جلده من التقشر جراء تعلقه ببعض الأشواك والشجيرات. كان يتخبط في النهر ودماؤه تسيل وغشاوة تمنعه من النظر جيدًا، لكن يده وهي تجدّف اصطكّت بجسمٍ قاسٍ وجد بعد أن أدار رأسه إليه أنه هيكل عظمي مهلهل نخرته المياه من كل جانب وعلقت جمجمته بين حجرين.

ارتعب نوسان من هول الموقف وأخذ يهرب إلى الأعلى لا سيّما والهواء بدأ يخون رئتيه، لكنه وفي اللحظة الحاسمة أطل برأسه من فوق صفحة الماء وسحب ملايين الذرات من الهواء قبل أن يختنق. كان منظر الغابة المحيطة والسماء في الأعالي مذهلًا لا يشبه الوحشة التي أحاطت به في الأسفل. أحس بشيء يلمس قدميه فأخذ يناطح الماء برجليه ثم خرج معافىً وانبطح على العشب المجاور وأنفاسه تتسابق في الدخول والخروج.

إنه أحد المنحوسين الذين أصابتهم لعنة الجزيرة. لم يبق سوى فتات عظامه، ولم يعلم هل تعود إليه العملة الذهبية أم لا. أخرجها من جيبه وأعاد تفحصها، وبقي

يتفحصها سرًّا أيامًا عديدة مقبلة دون أن يتبيّن مصدرها. كان يرجع للبحث حول النهر علّه يجد شيئًا خصوصًا وأن الإشاعات تدور منذ قديم الزمان عن كنزٍ مطمور في تربة سوبرات. إن الطمع الإنساني قاد الكثير من الرحالة إلى حتفهم. خاف نوسان أن يلقى المصير نفسه إن هو أصرّ على البحث وحده، لكنه لم يستطع أن يخبر أحدًا بسرّه ذاك.

ثم وفي أحد أيام البحث المضنية عن الذهب، فكّر نوسان في البحث قريبًا من تلك الجثة المجهولة، وفعلًا قفز في النهر وأزال الجمجمة العالقة التي انفصلت فورًا عن بقية الهيكل العظمي وطافت بعيدًا في الماء وهو ما جعل أطرافه ترتعد لتعدّيه على حرمة الموتى حتى إنه أحس بالجمجمة المغادرة تنظر إليه بحقد شديد وأيقن أن لعنة الجزيرة ستصيبه لا محالة، وهو أمر سيخيفه كلما تذكر تلك التجاويف التي نظرت إليه ذات يوم.

نبش التراب كثيرًا، وكان في كل دقيقة يطفو فوق سطح الماء ليسحب هواء نقيًا ثم يعود ويكمل ما بدأه، وبعد ساعتين من العمل المضني اصطدم بكيس متهلهل تتسرب قطع ذهبية من بين فتحاته، حاول أن يصرخ فرحًا لولا تذكره أنه في عمق النهر، أمسك الكيس بيدٍ وجدّف بالأخرى حتى خرج. كانت غنيمة لا تقدّر بثمن. مائتا قطعة من الذهب الخالص يمكن لها أن تجعل منه رجلًا فاحش الثراء. كانت لحظة من اللحظات النادرة التي بقي نوسان يتذكرها حتى آخر أيام عمره.

عاد من فوره إلى المركز بعد أن خبأ الكنز في مكان قريب ثم وضع قطعتين ذهبيتين بين أيدي طوبيل وكيتان المندهشين مما وجده.

ـ لقد وجدت خمس قطع ذهبية، أخذت واحدة، وأهدي إليكما هاتين القطعتين.

كانت منحة عظيمة جعلت من نوسان رجلًا ذا مكانة في الجزيرة، خصوصًا بعد أن أهدى أيضًا قطعتين ذهبيتين إلى هاتان وأخبره بنصف ما حدث. أجاب هاتان:

ـ أين بقية الذهب؟

بلع نوسان ريقه خوفًا من أن ينكشف سر الكيس المملوء ذهبًا وقال:

ـ أي ذهب؟ ماذا تقصد؟

ـ بقية القطع الخمس، إن هذا الذهب المدفون ليس ملكًا لأحد، سأضعه في صندوق خاص وسنصرفه بالتساوي بين جميع السكان.

أخذ هاتان بقية القطع على مرأى من طوبيل وكيتان الغاضبين لكن أحدًا لم يعلم قط عن أمر مائة وخمس وتسعين قطعة مخفيّة ببراعة تحت إحدى أشجار الكستناء القريبة من نهر الذهب.

❀ ❀ ❀

كانت الأيام الشاقّة على وشك البدء، فقد رأى الجميع ولأول مرة غرابًا أسود ينعق على سور مركز الجزيرة، كان نذير شؤم، وبالفعل لم تمرّ خمسة أيام حتى هاجم نفر من اللصوص الجزيرة وأحرقوا أسوار المركز بالنيران وهدموا المنازل أثناء غياب الجميع وذهابهم للصيد، لم يكن هناك سوى حارس وحيد وراء البوابة، قيل فيما بعد أنه قتل خمسة لصوص برمح بندقيته قبل أن يتم قتله وإضرام النار بجثته، كانت معركة غير متكافئة جعلت هاتان يستشيط غضبًا عندما عاد مع رفاقه ليجد أن كل ما تم بناؤه تأكله النيران وأقسم عند جثة الحارس المحروقة إنه سينتقم من قاتليه، وهو أمر لم يفعله قط. كانت نكسة كارثية في تاريخ سوبرات فقدوا فيها كل شيء، حتى إنهم لم يجدوا القطع الذهبية، وكان الشيء الوحيد الذي لم تلتفت إليه العصابة هو تلك الحيوانات التي تمت تربيتها وبقيت في الحظيرة بمأمن من النار رغم أن نصفها نفق خلال أيام تأثرًا بالدخان والروائح الكريهة للمحرقة.

أيام عصيبة مرت ناموا خلالها في العراء وتوسدوا أحذيتهم، وصل فيها الغضب إلى حدّه حتى إن عابون قام ذات ليلة من نومه وهو يصرخ:

ـ إنهما دوريان وفيجون، أنا على يقين من ذلك، وسأذيقهما الويلات إن لقيتهما يومًا!

لكن أحدًا لم يعبأ بصراخ عابون الهستيري، فالكل كانوا كذلك، واستمروا كذلك أيامًا حتى جاء ذلك الصباح الذي وصل فيه دوريان وفيجون ومعهما ثلاثة رجال، فعبّروا عن تعاطفهم وأنكروا أي رابطة تربطهم بما حدث!

قفز عابون ورجاله وأمسكوا الرجلين من رقبتيهما حتى شارفا الموت وهنا انبرى هاتان بشجاعة وخلّصهما من قبضة القراصنة:

ـ قف يا عابون! ليس هناك دليل ضدهما. أنا قائد هذا المكان وآمركم بذلك.

حملق الجميع في وجهه بغضب لكن ذلك لم يثنه إطلاقًا، بل على العكس فقد ساعدهما على الوقوف واعتذر منهما. كان موقفًا غريبًا، جعل دوريان يثني على هاتان ثم أعلن:

ـ أنا القرصان دوريان أتعهد بأن أساعدكم على إعادة بناء هذه الجزيرة، لدي الكثير من الأموال والرجال في مكانٍ ما، وسأضعهم تحت تصرفكم، يمكننا إعادة بناء كل شيء في أيام، بل سيكون الحال أفضل من سابقه. لكن لدي طلب وحيد فقط.

لم يترك مجالًا للتساؤل فأكمل من فوره:

ـ أطلب أن أكون ملك هذه الجزيرة، وسيكون فيجون مساعدًا لي!

أثارت هذه الكلمات استياء الجميع لكن احترامهم لهاتان أبقاهم صامتين منتظرين أن يرد بنفسه وهو ما حصل:

ـ لقد عدلنا عن قتلكما لأنه لا دليل مؤكدًا على فعلتكما الشنعاء تلك. اذهبا الآن ولا أريد رؤية وجهيكما ولا رفاقكما هنا مرة أخرى!

اسودّت وجوه العصابة وانسحبوا في الحال لكن ذلك لم يمنع غوريش ـ وهو أحد رجال العصابة الخمسة ـ من أن يصرخ فيهم:

ـ إنها أرضنا، نحن فرسان الوادي الأصفر، ولن نتركها لكم!

كان الزمان بطوله أمام هاتان ورجاله ليتساءلوا عن أمر ذلك الوادي الأصفر، لكن تعاقب الأيام يجعل دائمًا من الأمور الجدلية ألغازًا لا تنتهي، ويجعل الجميع يشعرون بالإثارة عندما يقتربون حسب ظنهم من تحليل الأمور بشكل صائب. ونظرًا إلى قلة الأحداث الطارئة التي حصلت لهم في السنة التالية فقد كانوا يعيدون الأحاديث والقصص مرارًا، حتى أنه وبعد سنة كاملة من الحديث ظنّ الجميع أن كل شيء يمكن قوله قد قيل، لكن أحدًا لم يفكر لوهلة أن نوسان يخفي سر الذهب تمامًا كما تخفي سوبرات مكان بافات.

كانت الجزيرة قد ازدهرت، أقله في جزءيها الشرقي والأوسط، واستطاع الرفاق بتكاتفهم توسيع الرقعة المأهولة

من الجزيرة وإعمارها أفضل مما كانت قبل الحريق المشؤوم، فقد ازدادت أحجام المباني إلى درجة أن مركز الجزيرة لم يسع غير مبنى الاجتماعات ومنزلين احتلهما هاتان وعامال بالإضافة إلى مبانٍ صغيرة لبعض الجنود. أما البقية فسكنوا شرق الجزيرة على بعد عشرة كيلومترات. لكن الاحتياطات الأمنية كانت مشددة فازداد طول الأسوار وازدادت متانتها وصلابتها، وتم تأمين خط عبور بين الشرق والمركز. ثم كان ذلك الاحتفال البهيج الذي أقامه هاتان بمناسبة عودة الأمور إلى نصابها واكتمال عمران الجزيرة.

كان يومًا سعيدًا هنا، لكنه كان يومًا عاديًا جدًا هناك في نيروت، بلدتهم الأصلية، حيث كانت تتكئ سيرينا أم هاتان على عتبة بابها كما في كل يوم منتظرة عودة ابنيها دون فائدة. خطوط التجاعيد على وجهها غدت تنافس خطوط الدموع المتكرر انسدالها، ولكن ما فائدة ذرف الدموع؟

كانت سيرينا تنشد نشيدًا حزينًا حين مرّت العجوز ألبينا سورخي ووقفت تستمع بحزنٍ لا يوصف، كانت تهليلة قديمة يغنيها الجدود خِفية في أوقات مضت:

ليس المال، ليست المزارع، إنها الحرية ما
نفتقدها..
ليست الأبقار ولا الخراف، بل أبناؤنا المنسيون..
صرخة واحدة وسيعودون..

لكنها صرخة انتظرت لدهور.. متى ستكون؟

وضعت يدها على قلبها وهي تتمتم: «متى ستكون؟». أحست بها سيرينا وسألتها عمّن تكون فعلمت بعد حديث طويل أنها والدة عامال. لم تكن السيدتان تعرفان بمصير الأبناء، لكن رابطًا خفيًا جعلهما تتشاطران الأحزان. كانت العجوز التي تعيش نهاية عقدها السادس قد بدت وكأنها في التسعين من العمر، فقد ابيضّت عيناها، وانحنى ظهرها، وتباطأت كلماتها. الغياب المدوّي فعل فعلته بالنساء، فكيف بامرأة انتظرت عشرين سنة لتنال مولودها الوحيد، ثم يأتي من يخطفه بكل برود. إنه نصيب لعين لامرأة طيبة كألبينا.

كان عامال في الوقت نفسه ينظر إلى البحر الشرقي للجزيرة الذي يؤدي إلى نيروت، وقد أفلت من صخب الاحتفال ليطالع بحرًا لا نهاية له. تذكر تلك العجوز التي تنتظره في جهة أخرى من العالم، وتعجّب كيف تلقي الأيام الناس في الردهات الخلفية للذاكرة. كان منشغلًا طوال سنين، لكن وفي لحظة، فكّر عامال: «لمَ لا أعود؟». كان قد اشتاق إلى أمه وإلى عائلته وإلى هواء نيروت الملوث بالكآبة لكنه أقله يظل الوطن. وبالنسبة إلى معارض فتيّ مثل عامال فقد كان يأمل البقاء وإصلاح ما يمكن إصلاحه بدلًا من الهروب إلى الحرية، لكنها الأقدار التي رسمت خطًا آخر.

ولأن الأقدار لا يمكن لها أن تجبر عامال على الرضوخ فقد قرّر أخيرًا الرحيل. كان قرارًا مفاجئًا للجميع، صاح هاتان بيأس:

ـ وصديقك تركوت؟ هل تودّ أن يصبح موته عبثًا؟ لقد قاتل لأجلنا، لأجل الناس هناك في نيروت، لا يمكن أن نستسلم الآن.

كان حازمًا للغاية عندما حاول الجميع إقناعه فلم يجب سوى بجملة:

ـ إنه الوطن، إنها أمي، مكاني كان وسيكون إلى الأبد في نيروت.

لذا فقد تخلى عن كل شيء ولم يندم لحظة أنه ترك ببساطة منصب النائب حتى بعد ما سيعرفه في المستقبل عن سوبرات وما سيحصل بها. إنه الوطن كما قال. ولأنه ليس خائنًا كما أشيع، فقد وعد الجميع أنه سيدل المستضعفين على هذه الجزيرة ليجعل منها ملاذًا لمن يريد أن ينعم بالحرية، وهكذا راق الأمر هاتان إلى حد أنه أرسله في سفينة عابون الذي وافق فورًا على اصطحابه إلى نيروت، وأضاف:

ـ أنا راحل أيضًا، مكاني هو البحر، لا يمكن أن أبقى على اليابسة أكثر من هذا.

كانت مفاجأة مدوية، لكن عابون قرر بشكل قاطع هو الآخر أن يعود إلى البحر، وفشلت كل الأساليب في إقناعه. وعوضًا عن ذلك فقد وعد أن يقوم بنقل مجموعة من سكان نيروت إلى هنا، وهو ما قد يعتبره البعض أهم سبب في علوّ شأن سوبرات وانتشار اسمها.

عادت الجزيرة إلى الانكماش موقتًا فرحيل عامال

وعابون ورجاله يجعل من سكان الجزيرة أربعة أشخاص فقط. لذا فقد انحبس الجميع في منازلهم خوفًا من لصوص الوادي الأصفر، لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

مرّت ثلاثة أسابيع حتى لاحت سفينة عابون ومن خلفها بدت ثلاث سفن صغيرة تعج بالناس، كانت لحظة لا تصدق حين وطئت أقدامهم شاطئ الحرية يتقدمهم عابون، سقط البعض من شدة الفرح، وانشغل بعضهم بصلاة الشكر، فيما حلّقت أعين الآخرين تمشط المكان بذهول.

(4)

لم يعرف أحد لمدة طويلة ما حلّ بعامال بعد عودته إلى أرضه، انقضى دهر من الزمن قبل أن يُعرف أنه عاش متخفيًا بعيدًا عن أعين السلطة التي وضعته منذ هروبه في سجلات خونة الوطن. لكنه لم يفقد شغفه بالحرية، الأحرى أنه وجد حريته تقبع داخل الروح. لم يحتمل مغامرات الرحيل والفقد، فآثر العزلة البسيطة، شُرب القهوة مع عائلته، تقليم أشجار الليمون المتناثرة في فناء المنزل، تبادل الأحاديث العادية البعيدة عن السياسة. كان خائنًا في نيروت وخائنًا في سوبرات، لكنه لم يكن كذلك في نظر ألبينا سورخي، وكان يكفيه ذلك.

أما عابون فقد قام بالنزال الأخير في معركته التي أتمّها حين استطاع بخبرته العريضة تهريب المئات من المرفأ وحشرهم في أربع سفن لينقلهم وهو ما جعل ثمن رأسه يرتفع ليصبح المطلوب الأول على مدى حياته المديدة، وذلك أمر أسعده على أي حال، فالقرصان الناجح في نظره لا يمكن أن يعيش مهادنًا.

جلب النزلاء الجدد الفوضى معهم، لكن هاتان استطاع أن يبين لهم أعراف المكان فتحدث معهم

واستمالهم ووعدهم بالنعيم الأبدي، وهو وعد صعب جعله يقع في العديد من المشاكل لاحقًا. والأهم من ذلك أنه جلب الأشداء اليافعين وكوّن جيشًا صغيرًا من خمسين مقاتلًا بقيادة كيتان. ضم الجيش أسماء لامعة من المعارضة السابقة مثل تمام وحسيم وموشار الذين تقلّدوا مناصب حساسة في الجيش.

كان كيتان ذكيًا، فاستمال الجيش لمصلحته ونجح في أن يكون أبًا روحيًا لهم وهو أمر ظل يزعج هاتان كثيرًا، خصوصًا وأن تمام وحسيم كانا يشاركان كيتان في معظم آرائه وتوجهاته، وقد أطلق عليهم اعتباطًا اسم جنرالات الجيش إلى جانب موشار الذي انحاز قليلًا إلى هاتان.

ضاقت الجزيرة بالساكنين الجدد فتم تعيين طوبيل ليتعهد بتنظيم أفضل للسكن، وهكذا قاموا بالتوسع شمالًا وأزيلت الكثير من الأشجار وقتلت الحيوانات الضارية وتم تعبيد الطرق وبناء المنازل جنبًا إلى جنب. شهدت الجزيرة خلال سنتين ازدهارًا لا نظير له وبدأ العالم يسمع بسوبرات الجميلة.

ارتفع عدد سكان الجزيرة فجأة من أربعة رجال إلى قرابة خمسمائة فرد. وخلال فترة وجيزة اندمج الجميع في بناء منظّم لمجتمع يبدو فاضلًا وأصبحت الأجزاء الشمالية والشرقية معمورة بشكل كبير، وانعدمت السرقات والجرائم بفضل إشراف الجيش على تحركات الجميع ليلًا ونهارًا.

كان هاتان يفكر في التغيير دومًا، وجود نوسان وطوبيل

وكيتان أصبح أمرًا مقلقًا بالنسبة إليه، فقد كانوا متفقين دائمًا في آرائهم وهو ما يجعل أي تصويت لمجلس الحكم تجاه أي قضية يصب في مصلحتهم، لذا فكر في البحث عن شاب ذكي وصغير السن يشبهه في الآراء ليعيّنه نائبًا له، وبدأ يجول يوميًا مراقبًا تصرفات السكان طمعًا في اقتناص الأكفأ منهم ونجح في ذلك حين اجتمع ذات ظهيرة بمالادان الشاب، وهو فتىً صغير الهيئة لكنه متّقد الحواس، قرر هاتان تعيينه نائبًا له، ومن هنا دبّت الخلافات.

أعلن نوسان رفضه لتعيين مالادان دون موافقة مجلس الحكم المصغر، لكن هاتان قلّل من أهمية الأمر، واعتبر قراره لا رجعة فيه، ثم لم يكتف بذلك بل وسع من مجلس الحكم ليضم ثلاثة أعضاء إضافيين وهم خسرون وعيمان والجميلة جافينا.

لم يكن توسع المجلس أمرًا غير متوقع بعد كل هذه الأعداد الإضافية من القادمين، لكن ما أغاظ أعضاء المجلس كان عدم استشارتهم، وهو الأمر الذي ناقشوه معًا:

- ما الفائدة من مجلس الحكم إذا لم يستشرهم القائد؟
- إنه مجلس صوريّ، هو لا يعبأ بنا ويتخذ أهم القرارات وحده.
- يجب أن نتحرك، نحن ثلاثة، ونحن أقوى وأذكى.

كان خسرون منذ البدء خبيثًا وذا وجهين، استمالوه فانحاز إليهم، واستماله هاتان فأبدى له الطاعة، كان محور

الأحداث فترة طويلة فعَظُم أمره. أما جافينا فكانت امرأة مثقفة، من علية قومها في نيروت، كبرياؤها لا يجب خدشها أبدًا، هكذا كانت تؤمن قبل أن تفاجأ بأحداث مروعة جعلت حياتها ذات وقع مختلف لم يمكن التنبؤ به. أما عيمان وهو العضو السادس في المجلس فكان ميسور الحال، وكان هاتان يأمل أن يستفيد من ماله الذي أتى به محملًا في صندوقين خشبيين لكن بخله الشديد جعل من هذا أمرًا متعذرًا، فاكتفى بالعمل الدؤوب وادخر ماله لتجارته الخاصة التي أسسها فور وصوله.

أتمّ هاتان كل الترتيبات اللازمة لاستقرار الجزيرة وكان على وشك النوم بهدوء في ليلة صيفية، لكنه لمح أسفل أحد الأخشاب الملقاة في غرفة نومه الخارطة التي سرقها قبل سنوات من ثياب عابون وكان قد نسي أمرها. قام من فوره ليخرجها وبدأ يتفحصها ساعتين حتى استطاع أن يحدد موقع الكنز المشار إليه، غادر خفية متجهًا نحو الجنوب، وصل إلى النهر، بحث ساعات حوله ولم يصل إلى نتيجة لذا عاد قبيل الفجر وغطّ في نوم عميق.

في هذه الأثناء كان نوسان واقفًا عند شجرة الكستناء التي دفن تحتها الذهب مثل عادته في كل أسبوع للاطمئنان على ماله. كان يخشى وضع الذهب في بيته لئلا يفتضح أمره يومًا. كانت الشجرة تبعد ثلاثين مترًا عن النهر وهو ما أتاح له مراقبة هاتان وحينئذ أيقن تمامًا أنه جاء بحثًا عن الذهب.

استمر هاتان في البحث كل ليلة، واستمر نوسان في

مراقبته خفية، حتى جاء ذلك اليوم الذي وسّع فيه بحثه واقترب من شجرة الكستناء، كان منتصبًا كرمح وهو يبتسم ويسأل:

ـ ماذا تفعل يا هاتان؟

ـ ما الذي جاء بك أنت إلى هنا؟

ـ أنا أراقبك منذ أيام، أخبرني الآن عمّ تبحث؟

لم يكن له من سبيل سوى إخباره بأمر الخريطة وإشراكه في الأمر، أكد له تمامًا أن الكنز سيكون من نصيب الجميع، وأنه آثر ألا يخبر أحدًا لئلا يتقاتل الجميع على البحث.

ـ والآن سنبحث تحت شجرة الكستناء هذه.

كانت جافينا تعبث دون اكتراث بخصلات شعرها على الشاطئ وهي لا ترتدي سوى ملابسها الداخلية ولم تتوقع ما سيحدث تاليًا لها بسبب جمالها ومفاتنها التي كان أغلب الرجال تواقين إليها، فمنذ سنوات لم يرَ رجال الجزيرة الأصليون جسدًا أنثويًا بهذا الجمال والتناسق وهو الأمر الذي كان يجعل لياليهم تنتهي بأحلام مثيرة غالبًا عن نساء وهميات يوفرن لهم المتعة الخالصة. بعد سنوات من هذه اللحظة ستكون جافينا محملة بالعار والغضب على الجميع، وستكون سوبرات أرضًا غير جديرة بتحمل أحلام كل المهاجرين.

على وقع أمواج المياه الهادرة وأصوات النوارس الراحلة بعيدًا كان صوت آخر يهدد موسيقى المكان وانسيابيته، لم يكن سوى دوريان الذي جاء مع عصابته وقال فورًا:

ـ سأعطيك ثلاث قطع ذهبية وتعالي معي.

كان تصرفًا كريمًا في نظره كون هذا القدر من المال يحلم به الرجال كأجرة شهرية، لكن لأن جافينا ليست من النوع الذي توقّعه دوريان، فقد غضبت بشدة وركض الدم في عروقها وأجابت مهددة:

ـ أنا لست رخيصة يا هذا، وإن لم تذهب الآن فسأقطعك نصفين.

أخرجت جافينا سيفًا فضيًا من تحت ملابسها الملقاة إلى جانبها ووضعت نصله لثوان على خدّ دوريان. سقطت قطرة عرق من جبينه على السيف واستمرت في الانحدار حتى لامست يد جافينا. أشار إلى عصابته كي يهدأوا ثم قال مبتسمًا:

ـ لستِ رخيصة؟ فلنرفع سعرك إلى خمس قطع، ما رأيـ..

لم تمهله ليكمل جملته حتى رفعت السيف ووسمته بخفة في وجهه بما يشبه أول حرف من أحرف اسمها. عادت إلى الخلف وهي تقول:

ـ هذا تذكار بسيط لك أيها السافل.

سقط دوريان على ظهره واضعًا يده على خده وهو يصيح:

ـ اقتلوها!

أخرج الرجال سيوفهم وأحاطوا بها. كانت في قمة خوفها ترتدي قناع الغرور، حتى وهي عارية الجسد ومحاطة بأربعة مقاتلين أشداء هم على التوالي فيجون وغوريش وآخران لم يعرف اسماهما قط. قام أحدهما بنكزها بسيفه في مؤخرتها باستهانة، لكنها عندما التفتت إليه كان سيفها قد سبقها إليه فحزّ رأسه ثم أكمل ليقطع رأس الآخر.

كان الرأسان يتدحرجان فوق تربة الشاطئ حين قفز

غوريش وأمسك بيديه الضخمتين سيفها واقتلعه منها ثم أحاطها فيجون من الخلف بذراعيه ولم تستطع التفلّت البتة. وهنا اقترب دوريان بخطوات حانقة وهو يمسح العرق والدم عن وجهه، أمسك بذقنها بقوة، اقترب بوجهه من وجهها بنشوة لكنها عاجلته ببصقة. احمرّ وجهه غضبًا ورفع سيفه عاليًا لكن حظه العاثر لم يسعفه للقضاء عليها فقد وصلت أصوات القتال إلى خمسة من حرس الجزيرة وسارعوا في التدخل وأحاطوا برماحهم عصابة دوريان.

انتهت المعركة فورًا لكن آثارها ستمتد لتشمل كل من بالجزيرة لاحقًا، أما دوريان فقد بقي حتى نهاية حياته يرتدي لثامًا على وجهه مخبئًا وصمة العار التي خطتها في وجهه وبقيت ذكراها ماثلة حتى النهاية وانتشر بين الناس وشمها لوجهه حتى غدت أسطورة شعبية قابلة للتصديق والتكذيب.

كانت المرة الأولى التي تحتاج فيها الجزيرة إلى محكمة، فقد اقتيدت العصابة وألقيت في سجن استحدثه كيتان الذي أشرف بنفسه على وقائع تعذيب أفراد العصابة سرًا وانتزع اعترافاتهم بالقوة مستغلًا خبرته في غرف التعذيب في سجن نيروت، لكن هاتان لم يكن يعلم عن هذا التعذيب شيئًا.

قرّر هاتان أن تنعقد محكمة يرأسها مالادان النائب الذي حكم بعد مناقشات مطوّلة مع المتخاصمين ومع مجلس الحكم أن يُسجن أفراد العصابة سنتين، وتُبرّأ جافينا

من تهمة القتل لدفاعها عن شرفها. لكن المكان عجّ بالسخط من جميع الأطراف، صاحت جافينا بثقة مهددة بما لن تفعله أبدًا:

ـ سأقتلهم حتى لو بقوا في السجن قرنًا من الزمن.

كانت مغتاظة، لكن ما زاد غيظها هو موافقة رئيس المحكمة على عرض سخيّ من فيجون حيث عرض أن يفتدي نفسه بماله:

ـ خمسمائة قطعة ذهبية سأهبها للجزيرة، أرسل معي رجالك إلى سفينتي وسوف أسلمهم الذهب.

أما غوريش فكان قوي البنية يعرف القراءة والكتابة فعرض أن يعمل دون مقابل سنتين في تعليم أطفال الجزيرة وهكذا كان بالفعل، فقد استمرّ غوريش في تعليم الأطفال القراءة والكتابة وفنون القتال سنتين دون أن يتقاضى قطعة ذهبية واحدة غادر بعدها الجزيرة وانضم إلى فيجون الذي كان قد استولى على جزيرة صغيرة وأقام فيها مدينة متواضعة تضم اللصوص والقراصنة والفارّين من كل مكان.

في خضمّ كل هذا كان دوريان يقبع في غرفة صغيرة لا يتجاوز طولها وعرضها أربعة أمتار حيث لم يستطع أن يقدّم شيئًا ليخرج من السجن ورفض أن يقوم بتعليم الأطفال، كان يصرخ:

ـ أنا الفارس دوريان ولا يمكن شرائي، أفضّل الموت بكرامة.

ثم أمضى سنة كاملة مسجونًا يفتش عن مخرج للهرب، وحفر خندقًا بالفعل ليهرب، لكنه لم يحتج إليه فقد أطلق مالادان سراحه ونفاه خارج الجزيرة وعاد طريدًا إلى فيجون.

كانت تلك سنة مليئة بالقمع والسجن. عمل كيتان قائد الجيش على إمرار قرار بمنع التنظيمات والأحزاب، وإجبار الرجال على العمل خمس ساعات يوميًا دون مقابل لإعمار الجزيرة. وعمل نوسان وزير الإسكان على إمرار قرار بأن تكون جميع مساكن الجزيرة تابعة للسلطة ولا يحق لأحد التصرف فيها. ساد التذمر.

كانت القرارات تمرّ بأغلبية خسرون، كيتان، طوبيل، ونوسان وأحيانًا جافينا أو عيمان.

ـ لا! إنها شجرة كستناء منخورة ولا داعي للبحث أسفلها فقد تسقط فوقنا.

توقف هاتان عن البحث، لكن ليس بسبب ما قاله نوسان، فقد كان متعبًا من البحث ورأى أن يؤجل ذلك إلى اليوم التالي، لكن ذلك اليوم تأخر إلى الأبد. اجتمع هاتان بمجلسه وأخبرهم عن الكنز ودعاهم للشروع في البحث.

خرج الجميع في الغد بحثًا عن الذهب، وهم بالضبط هاتان ونائبه مالادان، وأعضاء مجلس الحكم الستة: نوسان، طوبيل، كيتان، عيمان، خسرون، وجافينا.

كان نوسان يبحث بجدّ رغم إخفائه الذهب لئلّا يكشف أمره أحد، حتى أنه ألمح أن يبحثوا في الماء وهو ما حصل فعلًا في اليوم السادس للبحث، حيث استغلت جافينا مهاراتها في الغوص للاستكشاف متبوعة بالبقية، لكن أحدًا لم يكتشف شيئًا.

ظلّ الأمل يتضاءل في كل يوم، حتى اليوم الخامس عشر من أيام البحث حين اقترب هاتان من شجرة الكستناء التي تخفي تحتها ذهب نوسان، صُعق نوسان لرؤيته يباشر الحفر، انطلق ليقف أمامه وهو يقول:

ـ ليس هنا يا هاتان، ليس هنا، الخارطة تشير إلى النهر، صدقني!

أثار تلعثم نوسان شكوك هاتان فصرخ فجأة:

ـ هل هناك ما تخبئه عنا يا نوسان؟ هذا هو الوقت المناسب للحديث.

ارتعد نوسان خوفًا وظنّ ألا مفر من الاعتراف، لكن صراخ الرجال كان مدوّيًا وهم يقولون:

ـ الكنز، الكنز، لقد وجدناه!

كان خسرون قد وجد قطعتين ذهبيتين إلى جانب النهر تحت صخرة كبيرة. اقترب الجميع ودفعوها بصعوبة بالغة حتى تدحرجت إلى النهر. كان الغبار كثيفًا، وحين انقشع بعد لحظات وجدوا أمامهم حجارة مترادمة بعضها فوق بعض، أزالوها فوجدوا ما أصبح فيما بعد حكاية شعبية تتناقلها الألسن ويكذبها الكثيرون! باب خشبي!

سرداب مغلق تم فتحه ولم تعد الجزيرة بعد تلك اللحظة كما هي أبدًا. نزل هاتان بخطوات مترددة ممسكًا شعلة من نار، قرأ على جدار النفق نقشًا: (أنا جبران الكاهن، وهذه كنوزي، سينالها كل من تطأ قدمه هذا المكان، وسينال معها الموت والدمار). أكمل هاتان طريقه وعندما أطلّ برأسه كانت هناك غرفة مظلمة واسعة، نزل الجميع وأضاءوا بمشاعلهم المكان ليشاهدوا ما تيبّست له حلوقهم، آلاف القطع النقدية المتراصّة بعناية تنتظر وصولهم.

كانوا جميعًا مصعوقين، لكن هاتان لم يترك مجالًا

للدهشة، فبدأ بحمل النقود وأشار إليهم أن يبدأوا العمل. ثم صاح أحدهم:

ـ المزيد من الذهب!

كان هناك سرداب قصير آخر يفتح على غرفة أكبر بعشر مرات مليئة بالذهب الخالص، وكل ما سار أحدهم تكشّفت كنوز أخرى من الياقوت والزمرد والألماس، كان كنزًا أسطوريًا جعل البعض يبكي ويرقص بهستيريا، لكن أحدًا لم يعبأ بالتحذير المكتوب على جدار السرداب!

لم يكن ممكنًا نقل كل هذه الكنوز إلى مركز الجزيرة، لذا قرّر هاتان تسوير المنطقة وتعيين عشرين حارسًا بقيادة الجنرال موشار لحماية المكان حتى يقرّر ما يفعل.

كان يومًا لا ينسى، ازدهرت بعده الجزيرة، وأصبحت جنة للجميع، لم يكن حجم الكنز معلنًا للناس، لكن الأخبار تنتقل بسرعة في سوبرات، والأطماع تزداد، والبشر يتوافدون من كل حدب وصوب. كانت ثلاث سنوات من الازدهار والمؤامرات أيضًا.

كانت كنوز الجزيرة قد أعمت أعين الجميع عن كل ما رسموه سابقًا من مستقبل، لم يكن أحد يتصور أن يفعل المال فعلته ويقلب الأمور رأسًا على عقب. ارتفع عدد سكان الجزيرة إلى عشرة آلاف نسمة، منهم ألف مقاتل في الجيش، وهو أمر جعل المكان مزدحمًا دائمًا ومليئًا بخيرات الجزيرة والخيرات التي تستورد مقابل الذهب. احترمت جميع الجزر والدول سوبرات وأزالت الحظر والعقوبات عنها،

لم تعد هنالك أي تهديدات خارجية، التهديد كان دومًا ينبع من الداخل.

كان مالادان النائب ورئيس القضاة غير مرتاح للبقاء في منصب كبير كهذا وهو الشاب المندفع نحو الحياة. الأمور الروتينية أحاطت به من كل جانب، الذهب الذي غيّر النفوس، المعارك التي سيسببها الجشع، وخطر السلطة والمال. لذا وقف في يوم شهير أمام القائد هاتان ومجلس الحكم قائلًا:

- أعلن لكم اليوم استقالتي من جميع مناصبي، أحتاج إلى التفرغ لحياتي والزواج وعيش مغامرة جديدة لست فيها صاحب منصب، أنا رجل حر، لا يمكن تقييدي إلى الأبد.

استمع الجميع بدهشة، كان خسرون يشعر ببارقة فرح وأمل أن يحلّ مكانه، وهو المنصب الذي فكّر فيه طويلًا، بل ودار بباله أن يكون ذات يوم بديلًا لهاتان.

لكن كل تلك الأحلام تبخرت عندما رأى هاتان يمسك بنائبه بشدة وهو يقول:

- لن تذهب! وسنلبّي جميع طلباتك، اختر أي امرأة تريد الزواج بها وسنفعل.
- ليس الأمر بهذه البساطة، الحقيقة أني لا أستطيع...
- لا تستطيع ماذا؟ إنك أفضل من يشغل هذا المنصب، أنا آمرك بالبقاء.

كان جدلًا عقيمًا استمرّ دقائق دون تدخل من أي

طرف آخر. كانت أسباب مالادان غير منطقية لكنه ببساطة ملّ وأراد أن يبتعد. قاطعهما خسرون فجأة:

ـ دعه يرحل!

التفتت جميع الأعناق وساد الصمت، فتابع:

ـ لا يمكن أن يعمل جيدًا إذا بقي مجبرًا. أنا مستعد لأن أحل مكانه، وأعدكم ألّا أخيب ظنكم أبدًا.

كان موقفًا صعبًا لدى جميع الأطراف، بقي مالادان صامتًا، لكن هاتان قال بشدة:

ـ اصمت أنت! لن يغادر مالادان.

احمرّ وجه خسرون خجلًا وغضبًا، حاول الحديث لكن كلماته خانته حين أحس بالإهانة التي ستظلّ وصمة عار مهما حصل. انبرى كيتان:

ـ أرى أن خسرون منطقي في كلامه، لماذا يصمت؟ مالادان لن يستطيع العمل بجد مادام يريد الرحيل. أنا أطلب التصويت.

نزلت كلماته كالصاعقة، لكن هاتان خلع مجبرًا عباءة الدكتاتور لكيلا يخسر البقية، وأجاب:

ـ حسنًا، من أراد أن يبقى مالادان فليرفع يده.

ارتفعت يدا عيمان وجافينا فقط، فيما بقيت أيادي طوبيل وكيتان ونوسان في أماكنها، كانت لحظات صعبة صُعق فيها هاتان لتخليهم عنه فيما تبدّت ابتسامة ذات مغزى على وجه خسرون، كان سيغدو انتصارًا مدوّيًا، أن يصبح نائب القائد العام!

لم تمر ثوان حتى رفع هاتان يده وقال:

ـ وأنا أيضًا أؤيد بقاء مالادان!

تعالت اعتراضات عدة رافضة أن يحسب صوت هاتان.

ـ أنت طرف في القضية، صوتك غير محتسب!

ـ لستُ طرفًا! مالادان وخسرون هما الطرفان.

ـ لكنك تقف منذ البدء في صف مالادان.

ـ وكيتان أيضًا وقف مع خسرون وطلب التصويت، فليحذف صوتي وصوته!

تعالى الجدل واحتدّ النقاش إلى أن صرخ مالادان:

ـ صمتًا! سأبقى في منصبي، اهدؤوا.

لم يستطع خسرون ساعتئذ أن يكبح جماح نزواته:

ـ أنتم أوغاد! هاتان، سأنتقم منك إن طال الزمن أو قصر.

رحل فورًا بعد قذفه الشتائم، وساد صمت طويل. لم يستطع أحد أن يتفوّه بكلمة لدقائق. مرت اللحظات إلى أن قال هاتان:

ـ والآن عودوا إلى عملكم، فقد انتهت القضية.

انفضّ الجمع، ولم يجرؤ أحد على السؤال عن مصير خسرون. ذهب هاتان ومالادان معًا نحو منزل مالادان.

ـ شكرًا يا صديقي، أنقذتني من ورطة كبيرة.

ـ لا عليك يا هاتان، أنا بقيت لأجلك.

ـ والآن الزم منزلك فأنت في عطلة حتى تعود إليك الرغبة في العمل من جديد.

كانت نهاية مُرضية. لكنها لم تكن كذلك لخسرون

الذي ذهب إلى كيتان وبقي طوال الليل يتوعّد أن يقتل هاتان شر قتلة.

- اهدأ يا خسرون، كلنا نعلم أنك الأحق بالمنصب، ولكن لا نريد منك أن تتهور وتفسح له المجال لإبعادك.
- ماذا إذن؟ أعود غدًا إلى المجلس وكأن شيئًا لم يكن؟
- ثق بي فقط وأفعل ما أطلبه منك.

نادى كيتان الجنرال تمام والجنرال حسيم، وبقي الأربعة يخططون طوال الليل للعمل معًا، كان تحالفًا سريًا خطيرًا يهدد سلامة الجميع، لكن أحدًا لم يدرِ عنه.

يوم آخر كان ينقضي في خريف سوبرات، ويوم جديد يعلن أحداثًا جديدة مهمة، الجميع متحفزون للمستقبل. الجميع ينتظرون.

(5)

كانت الأيام الرمادية في نيروت لا تنتهي. ذلك الشعور عديم النكهة لدى أغلب الناس، الشعور بالسعادة الناقصة رغم رغد العيش. كانت أيام نيروت شبيهة بذلك معظم الوقت.

في الحياة متسع لكل شيء.

حتى الأيام التي يسميها البعض رمادية، كان عامال يسميها أيامًا بسيطة. الشعور بالسكينة كان يملأه في نيروت إلى جانب أمه وإخوته وحبيبته.

أمام الحب تتضاءل كل الخيارات الأخرى. وحبه لعائلته كان أكبر من أن يستمر في مغامرة غير أكيدة النتائج. لذا فقد استمر سنوات مديدة في منفاه الاختياري ورضي به تمام الرضى. لم ينظر إلى الماضي ولو مرة، وقد فاته الكثير بذلك لكنه نجا من كل ما ينغص البال. كانت مغامرته الوحيدة هي لقمة عيشه اليومية وكيف يستطيع الاستمرار في تنمية مزروعاته لتدرّ عليه ما يكفي. عاش كل يوم بيومه وكفاه ذلك العيش شرور الجميع.

كان يقول لمن حوله:

ـ كم هو جميل الغد، فهو يأتي كل يوم. عندما يصبح

يومي مظلمًا، أنتظر أن تشرق الشمس غدًا، ومهما انتظرت، فلن يطول انتظاري أكثر من يوم واحد.

وهكذا فقد كانت مشاكل الآخرين لا تعنيه، وليت كل الناس كذلك.

لم يكن ابن عمه ربيع يشاركه في أي من تلك الأفكار، وسيظلان متناقضين في ذلك حتى وقت متأخر من عمريهما. ورغم أنهما لم يلتقيا قط، فقد كانت روابط كثيرة تجمعهما بالإضافة إلى رابطة الدم. فكلاهما سُجن وعُذّب، وكلاهما سكن سوبرات، وكلاهما سيعيش آخر أيامه في نيروت.

كان ربيع قد بلغ عامه الخامس بعد العشرين حين تم سجنه وتعذيبه في سجن نيروت، وقد أتمّ ثلاثة وعشرين عامًا قبل أن يهرب بأعجوبة ثم ينضمّ إلى الفارّين نحو سوبرات في اليوم نفسه الذي عاد عامال بشوق إلى وطنه الأم.

كانت سوبرات أرض الميعاد بالنسبة إليه، فقد رمى في البحر كل آلامه قبل قدومه، وما أن وصل حتى بدأ العمل الدؤوب في التجارة حتى أصبح ذا شأن بين السكان. لكنه كان مكروهًا من بعض التجار وأهمهم التاجر وعضو مجلس الشعب عيمان الذي كان يهدف إلى احتكار سلع أساسية وبيعها للسكان بأسعار ليست في متناول الجميع.

لم يكن هناك صدام في البداية بينهما، فقد ردّ ربيع كل وشاية تصله ولم يلق لها بالًا، وهو أمر أوقعه في الكثير

من المتاعب، لكن ما سيفعله لاحقًا سيعلي من شأنه كثيرًا وسيجعله المحبوب الأول في سوبرات.

أما في نيروت فلم يكن ربيع سوى خائن مثله مثل بقية من هرب، لم يكن أحد ليدافع عنه إلا من رأى صبره وجلده في السجن وما بعد ذلك.

وجد بافات نفسه يجدّف وحيدًا في بحر الظلمات قاطعًا الطريق من سوبرات إلى نيروت. لم يكن معه إلا حذاؤه وقطعة خشب يجدّف بها في قارب. هو والبحر وحيدان إلّا من هلوسات يلقيها جبران في أذنه:

- اهرب، هيا جدّف بسرعة قبل أن تلحقك وحوش سوبرات.
- ألن تخبرني بما حلّ في الجزيرة؟ هل صحيح أن الرفاق ماتوا جميعًا؟ وأخي؟
- اهرب من الموت يا بافات، لقد ماتوا جميعًا.

كانت تلك الليلة الموعودة للفرار، قبل سنتين من اكتشاف الذهب، لم يعرف بافات قط كيف تدرجت به الأحداث حتى وجد نفسه في عرض البحر. قضى بعدها أيامًا لم يعرف عددها هائمًا في البحر، يسير على ضوء النجوم وإرشادات جبران المسبقة له ثم يتوقف إذا بزغت الشمس لينام. كانت الأهوال التي مرّت به في البحر غير أكيدة حتى له. ولم يعرف أحد قط حتى هو إن كان ذلك القرش الذي صارعه ساعتين حقيقيًا أم لا. وتلك العاصفة

البحرية التي قذفت به عشرين مترًا إلى الأعلى ثم عشرة أمتار إلى القاع أكانت حقيقية كما أقسم مرارًا أم لا؟

كان مزاجه يتقلب مع تقلّب الأمواج، يرتفع تارة فيضحك ملء شدقيه، ثم ينحدر تارة فيبكي حتى يكاد يضيع دربه.

ـ الجميع يبكون من الحزن، ولكن هل أبكاك الفرح يومًا؟

سأل جبران الساكن في عقل بافات، لم يهتم بتلك الجملة المعترضة أفكاره، لكنه سيتذكرها حتمًا عندما يحين الوقت المناسب لذلك.

لكن حزنه الآني على وفاة أخيه ورفاقه كان عظيمًا. لم يكن يدري أكان يبكي فعلًا بلا دموع أم أن مياه البحر التي تغسل وجهه باستمرار أعمته عن الحقيقة؟

استغرق في البحر سبعة أيام حسب تقديراته في أكثر حالات مزاجه اعتدالًا. لكنه كان يصرّ أحيانًا أنه بقي شهرًا كاملًا في البحر دون ماء أو غذاء. وعندما وصل إلى ساحل نيروت كان جلده قد انسلخ عن جسمه فبدا أدكن جدًا والبياض حول فمه قد ترك ندوبًا طويلة الأمد، حتى إن أمه سيرينا غوران لم تتعرف إليه حين قدم محمولًا على حمار أحد الرعاة الذين أحضروه شبه فاقد للوعي.

ـ أنا بافات يا أمي. أقسم أني هو، اقتربي.

كان منظرًا مدهشًا حين مدّت الأم يدها لتمسك يده وأيقنت عبر اللمس فقط أنه ابنها رغم التقرحات والتغيرات

التي جعلت منظره كريهًا جدًا، لكن قبحه المفاجئ لم يكن أمرًا مهمًا لأم انتظرت بشوق سنوات، فقد عانقته وبكيا كثيرًا حتى فقدت دموع الفرح معناها.

عادت إلى بيتها ممسكة بيد ابنها خوفًا من أن تفقده ثانية، كانت يدها ترتعش وقلبها يكاد يقفز من مفاجأة القدر، انتظرت يومين قبل أن تسأله السؤال الذي كان يلحّ عليها في كل ثانية:

ـ أين هاتان يا صغيري؟

كانت الأم التي تعتبر بافات رغم كل ما حصل صغيرها تنتظر جوابًا متوقعًا، لكنها أرادت أن تسمعه منه لكي يتبدد وهم الانتظار.

ـ لقد مات يا أماه، نهشته وحوش الجزيرة مع البقية.

لم يكن باستطاعته تلطيف هذا الخبر بأي شكل ممكن، الموت يظل موتًا. ولذا فعوضًا عن نسج الآمال الكاذبة سنوات، لا بأس من الحزن عدة أيام.

كان خبرًا موجعًا، بدّد فرحتها بعودة بافات، ناطح الحزن الفرح حتى أرداه. لذا غدت أيام سيرينا بطيئة لا تتزحزح، وأكل حزنها على وفاته ما تبقى من عمرها حتى غدت شبحًا لا يتحرك في فناء المنزل.

لم تكن هلوسات بافات مقنعة للكثير من المفجوعين والثوار، بل إنهم أخيرًا رموه بالطوب حين أجابهم عن مصير أبنائهم.

ـ لم يبق أحد. إن لعنة الجزيرة قد طاردت كل من

سكنها. أنا محظوظ لبقائي حيًا، أخبرني جبران بذلك.

لكن ربيع ومعه المئات لم يصدّقوا ترّهاته تلك، وعندما وصل القرصان عابون ليأخذهم، اقتيدوا كالعميان رغم بكاء أهاليهم. فسافر منهم من سافر، وتراجع القليل. وعندما حطّ عامال قدمه على مدخل حديقة منزله كانت نصف السفن قد غادرت. وبعد أسابيع علمت سيرينا غوران من صديقة المحنة ألبينا سورخي بالأمر.

ـ إنهم أحياء، لا تصدقي هذا المجنون!

كان ذلك اللقاء علامة فارقة في حياة سيرينا، فقد بثّ فيها الحياة من جديد بشكل مدهش وعاد اخضرار روحها كالسحر. لم يكن بافات ليصدّق شيئًا من كلمات ألبينا إلا بعد أن رأى صديقه عامال رأي العين.

لم يكن أيٌّ منهما يعتقد أن الآخر حيّ. وفاة بافات كانت مشاعة لدى كل سكان سوبرات، فيما كانت وفاة عامال مشاعة لدى سكان نيروت.

لكن الأيام التي لا ترحم دائمًا كانت في أشد حالاتها عطفًا حين تعانق الصديقان وبقيا غير مصدقين لما حصل. كان عامال يتحسس بافات ويقسم للجميع أنه رآه يسقط من أعلى شرفة السجن، وأن جثته بقيت تطوف البحر حتى وصلت إلى سوبرات ثم اختفت هناك. في حين يصرّ بافات على وفاة عامال والجميع قبل هروبه من الجزيرة.

كانت لحظات لا تصدق، انعزل بعدها عامال مع

عائلته بعيدًا عن أعين الجميع، فيما قرر بافات بشكل نهائي عندما استعاد عافيته بعد أشهر أن يخوض البحر من جديد للبحث عن أخيه. واختفى ذكره طويلًا وغاب في أماكن لم يعلمها أحد ـ حتى هو ـ ليظهر بعد سنوات في سوبرات، وهكذا كان.

كان ربيع في أيامه الرابحة في التجارة يقدم الكثير لسكان سوبرات، بل بلغ به الأمر ذات يوم أن عرض بضائعه مجانًا، وهو الأمر الذي أفقد عيمان صوابه فكسر حاجز الرتابة في العداوة، وحطّم جميع بضائع ربيع على مرأى من الناس ثم اقتاده إلى مالادان وطلب أن يتم نفيه بعيدًا لإضراره بمصالح الجزيرة، لكن مالادان قرر أن من حقه البقاء على أن يبيع بسعر معقول.

انتهى الأمر عند هذا الحد لكن هاتان فور علمه بما حصل استدعاه وشكره وقرّبه منه حيث أصبحا صديقين حميمين. كل ذلك كان قبل أن يتم اكتشاف الكنز المدفون. أما ما حصل بعده من أحداث فتلك قصة أخرى.

كان الكنز حافزًا للمشاكل بين أعضاء مجلس الحكم مثلما هو المال دائمًا. ففي اللحظة التي يأتي فيها المال ويعتقد الجميع أن مشاكلهم قد انتهت، يبدأ كل شيء. وبعد أن أثار خسرون بلبلة وشتم هاتان ثم غادر مغتاظًا المجلس، جاء في اليوم التالي بشكل عادي وكأن شيئًا لم يكن، لكن هاتان فور أن رآه صاح به:

ـ اخرج يا وقح، أنت مطرود منذ الأمس.

اعترضه كيتان:

ـ أين الديموقراطية التي وعدتنا بها؟ لا يحق لك طرده لمجرد كلمات خرجت في وقت الغضب!

ـ لقد تحملتك كثيرًا يا كيتان، فلتصمت وإلا ستلحق به!

ارتعش جسم كيتان بالكامل لدى سماعه تهديد هاتان، ولم يدرِ إن كان قد ارتعش بسبب آثار الكهرباء التي كان يتلقاها في سجون نيروت في الماضي أم بسبب صراخ هاتان الذي أخاف منظره الغاضب معظم الموجودين. دوّى صمت رهيب بعد ذلك لم يقطعه إلا صوت خسرون عندما قال ما لم يتوقع أحد أن يقوله:

ـ يبدو أننا أمام مشكلة، حسنًا، كلامي موجّه إلى المجلس، هل يعجبكم ما يفعله هاتان من تصرفات أحادية؟ أنا أطلب تنحيته وتعيين كيتان قائدًا عامًا، من يوافقني؟

قفز هاتان من كرسيّه حاملًا سيفه وهجم ليقتله قبل أن يمسكه البقية، وافقه كيتان:

ـ نعم، لنصوّت، ما المانع؟ أتخشى على كرسيّك؟

احمرّ وجه هاتان غضبًا ونظر إلى البقية، لم يعلّق أحد، كانت لحظة مخيّبة للآمال سيذكرها هاتان إلى الأبد:

ـ أنا هاتان، زعيم هذه الجزيرة، تساومونني على منصبي لأجل هذا الوضيع؟ هل نسيتم ما تعاهدنا عليه منذ البدء؟ أنا لا أخشى التصويت، هيا يا نوسان قل رأيك؟ عيمان وطوبيل ما رأيكما؟ جافينا، هل أنتِ ضدي أيضًا؟

رفع مالادان يده:

ـ أنا مع هاتان.

رفعت يدها جافينا:

ـ أنا مع هاتان.

أبقى طوبيل ونوسان أيديهما منخفضة:

ـ لسنا ضدك يا هاتان، ولكن نحن مع بقاء الجزيرة، وأنت تهدمها بقراراتك المتهورة.

اتجهت جميع الأعين إلى عيمان، كان مستقبل الجزيرة مرتبطًا برفع يده أو عدم رفعها، لكن مصالحه كانت أهم، فسياسات هاتان لا تخوله العمل بحرية في تجارته:

ـ عذرًا هاتان، سامحني!

ـ لا، لن تعزلوني هكذا. أيها الماكر كيتان سأنتقم منك!

صرخ هاتان، قبل أن ينادي خسرون:

ـ تمام، حسيم، موشار، اقبضوا عليه وضعوه في السجن.

قفز محاولًا الهرب، لكن خسرون اعترض طريقه وطرحه أرضًا وهو يبتسم، قائلًا:

ـ لقد ولّى الزمن الذي تلقي فيه الأوامر، سوف تتعفن في السجن حتى تموت. ألقوه في السجن!

أمسك الحرس بهاتان وهو مذهول، كان وجهه مصطبغًا بعلامات الأسى والغضب والدهشة وكل ما يمكن تخيله من مشاعر، أما خسرون فقد ابتعد عنه وهو يبتسم

ابتسامة انتصار، نظرته المغرورة تلك بقيت في ذهن هاتان إلى الأبد، الشعور بالمهانة، بالخيانة، لم يكن ممكنًا النسيان.

ـ شكرًا لكم يا أحبة، لقد تخلصنا من خائن، لم يزل يحاربني بسيفه حتى قتلته بعقلي. أنا كيتان، بصفتي قائدًا لكم، أعيّن خسرون نائبًا لي ورئيسًا للقضاء بدلًا من مالادان. شكرًا لكل ما قدّمته يا مالادان، أنت مطرود، ولا تخف لن نحاكمك بتهمة الخيانة.

نظر بابتسامة متبادلة إلى خسرون ثم أضاف:

ـ أنتِ أيضًا جافينا، غادري المكان فورًا.

كانت خطة دنيئة هيمن بفضلها كيتان على الحكم مع خسرون. في حين كانت نتيجة مناسبة ومرضية لنوسان وطوبيل، أما عيمان فقد أسعده ما حصل على كل حال. المال والسلطة، هل يمكن تخيّل حال أفضل من هذا؟

خرج هاتان مصفّدًا، اللعنات المتطايرة لم تصل بعيدًا، فالسجن كان في الجوار، تم حشر هاتان في غرفة صغيرة، غادر تمام بعد أن ركله على قفاه وهو يسبّه، ثم تلقى بصقة من حسيم الذي تبعه، فيما بقي موشار مشيرًا إليهم أن ينتظروه في الخارج.

ـ وأنت، ماذا ستفعل أيضًا؟

ـ لا تخف يا سيدي، لن أؤذيك، أنا هنا لمساعدتك.

ـ مساعدتي؟ أطلق وثاقي إذن ولنهرب.

ـ لا أستطيع، سيقتلونني، الجيش في كل مكان، وكيتان

سيخطب في الناس ويعلن لهم ما حصل، سأساعدك، هذا وعد.

خرج موشار متجهمًا ثم عندما بدا على مرأى من تمام وحسيم، بصق على زنزانة هاتان وقال لهم:

- هيا بنا!

استفسر تمام:

- ماذا قلت له؟

- أردت منه أن ينهي المشكلة ويتنازل طوعًا عن الحكم لكن لا فائدة، إنه عنيد.

كانت الأحداث تعصف هناك في وسط الجزيرة، فقد قدِم كيتان وجنوده وجمعوا السكّان، لم يكن أحد يتصور أن يحدث انقلاب على حكم هاتان، لكن خسرون تسلم زمام الحديث:

- سكان سوبرات، لقد خانكم هاتان وسرق كنوز هذه الأرض، هذه الجزيرة المليئة بالخيرات، لذا قررنا أن نعزله هو ورفيقيه الخائنين، مالادان وجافينا، ومنذ اليوم لن تعيشوا إلا في رغد من العيش، وسعيًا لتنفيذ ذلك، فقد اختار مجلس الحكم كيتان قائدًا عامًا لجزيرة سوبرات.

هلّل الناس وصفقوا، فيما تعالت أصوات التعجب لدى الكثيرين، كان الجميع مندهشين لما حدث، لكن شيئًا أبعد من ذلك لم يحصل، لم يثُر أحد، لم يعترض أحد، سكتوا جميعًا إلا رجل صاح:

ـ عليك اللعنة.

بدأت الجموع تتهامس وتنظر إلى الرجل الذي وقف منتصبًا وأكمل:

ـ لن نقبل حاكمًا آخر، أعد لنا هاتان.

بدأ التوتر يزداد والناس يتحركون ويصيحون، إلى أن أشار خسرون إلى حرسه فأحضروا الرجل إليه، سأله دون أن ينظر إليه:

ـ أعلن الولاء لكيتان أو استعد للموت.

أجاب محاولًا أن يُظهر تماسكه:

ـ من يخف الموت، ليس أهلًا للحياة!

لم يلتفت قط إليه، أبقى نظره مركزًا بحزم على الناس، أخرج سيفه من غمده ثم بحركة واحدة قطع رأس الرجل، سقط الجسد أرضًا وتدحرج الرأس أمامه، صاح خسرون:

ـ والآن، هل هناك رجل آخر يرفض حكم كيتان!؟

(6)

لم تكن جافينا المرأة الوحيدة في الجزيرة، لكنها حتمًا كانت الأجمل، والأعنف. كانت في قمة غضبها غداة اعتقال هاتان، تعلم جيدًا أن التشكيل الجديد لمجلس القيادة سيقوم بالفظائع ـ وهو الأمر الذي حدث بالفعل ـ ولم تتحمل أن تهان كرامتها مرة ثانية بعد عزلها لذا قررت الرحيل.

كانت تعلم تمامًا ما تفعله وأي اتجاه تقطع وأي بلد تقصد، حتى أنها حددت تمامًا منصبها الذي ستتولاه لاحقًا في مكان آخر. لكن ما لم تتوقعه قط هو اعتراضها من قبل سفن فرسان الوادي الأصفر الذين يسكنون جزيرة بورتان، وهي الجزيرة التي تقطع الطريق المباشر بين نيروت وسوبرات، فقد أسس فيجون وزمرته مركزًا لاعتراض السفن ونهب الأموال وانضمّ إليه الكثير من القراصنة وقطاع الطرق والمنفيين. كان دوريان مساعده الأول، ولسوء حظها فقد كان هناك حين اعترضت السفن قارب جافينا واقتادوها إليه.

ضحك كثيرًا وهو يراها مقيّدة، منكوشة الشعر، مقطّعة الملابس، وقد فَطِن إلى أن معركة حامية قد دارت قبل القبض عليها:

ـ أنتِ لا تستسلمين بسهولة، أبدًا، هذا ما يثيرني تجاهك.

انبرى أحد الرجال وهو مقطوع النفس ليقول:

ـ لقد قتلَتْ أربعة رجال يا قبطان.

زاد حنقه عليها، وأحس بالخوف منها، لكن ما طمأنه هو إمساك أربعة رجال ضخام الجثة لها وتكبيل يديها إلى ظهرها، أشار بإصبعه إليها:

ـ اخلعوا ملابسها.

أخذت تصرخ وتقاوم بكل ما أوتيت من قوة حين بدأوا بنزع ملابسها، وحين تكشّف معظم جسدها أشار إليهم أن يتوقفوا:

ـ هل تريدين مني التوقف؟

أومأت بالإيجاب دون أن تتحدث، فأشار إلى الجنود ليجلسوها عند قدميه، وقال:

ـ قبّلي قدميّ وتوسلي إليّ!

نزلت على ركبتيها واقتربت من قدميه، لكنها قامت ـ عوضًا عن التقبيل ـ بقضم إحدى أصابعه بقوة شديدة، فأخذ يصرخ صراخًا مدويًا وبدأ الرجال يسحبونها ويركلونها على بطنها وظهرها حتى تركته وانفجر الدم في المكان.

ـ أيتها العاهرة، لن أصدّقك بعد اليوم!

كان يمسك بما تبقى من إصبعه ويصرخ في الجنود الذين قاموا بتعريتها بالكامل ثم ثبّتوها في الأرض وبدأوا

يتناوبون على اغتصابها ساعات، أما هو فقد استمرّ في تعذيبها واغتصابها عشرة أيام متتالية ثم أبقاها في السجن مدة طويلة. واستمرّ تعذيبها وتجويعها أسابيع حتى قيل أنها تحولت في الأيام الأخيرة لها في الجزيرة إلى وحش كاسر وقتلت سجانيها وهربت.

لكن ما حصل أثناء حبس جافينا من فوضى وغضب عارم أعمى أعين الجميع عن قارب بافات الذي عبر الطريق بكل أمان ووصل إلى ساحل سوبرات دون أن يعترضه أحد، كان كل ما يشغل باله هو أمه التي تركها في نيروت ووعدها ألا تموت دون أن ترى ابنها هاتان حيًا، نظراته الأخيرة إلى دموعها وهو يغادر اليابسة فيما يرفع يده المضمومة إلى السماء في إشارة إلى النصر. كانت اللحظات تتداعى حين اقترب وبدأت الأفكار تقرع طبولها في رأسه، من أين يبدأ؟ وحين نزل بهدوء على أرض سوبرات اندهش لمشاهدة الأعداد الكبيرة للسكان والتطور العمراني، لم يكن يدرك أي شيءٍ من ذلك. كان مخدوعًا فصدّق كل ما قاله له جبران في رحلة الموت. اقترب من أحدهم وسأل:

- هل تعرف أين يسكن هاتان؟
- نعم، في السجن.

أطلق الرجل ضحكة مدوّية ثم نظر إلى أصدقائه:

- إنه يسأل عن مكان الخائن هاتان.

ضحك البقية ورموه بقشور الموز والبرتقال فابتعد

مسرعًا وخائفًا، ثم بعد أن هدأت الأمور، سأل بلطف رجلًا عجوزًا يخفي وجهه بقماشة:

ـ يا جدي، هل تعلم لماذا يقبع هاتان في السجن، فأنا ساكن جديد ولا أعلم عن ذلك شيئًا. كل ما أعرفه أن هاتان حاكم طيب وعادل.

قام العجوز بتثاقل من مقعده، واقترب منه وهمس:

ـ صه. فلو سمع أحد ما قلته ستقطع رقبتك.

تحسس بافات رقبته وهو مدهوش ولم ينبس ببنت شفة. تابع العجوز:

ـ إن كيتان هو الخائن، لا هاتان، أنا أعلم ذلك جيدًا، لكني عجوز جدًا لأفعل أي شيء، اذهب إلى مالادان شمال الجزيرة، سيخبرك بكل شيء، أعلم أنك ستحارب من أجله، أعلم كل شيء.

قفز أرنب من أحد الدكاكين المجاورة فارًا من صاحبه، انطلق بافات بدون تفكير وأمسكه وأعاده إلى صاحبه. التفت إلى العجوز ليشكره لكنه وللغرابة اختفى، فكّر وقال في قلبه: (هل هو حقيقي؟) ثم مضى في طريقه شمالًا حين قفز اسم من ذاكرته: (هل هو جبران!؟).

لم يكن مالادان ودودًا كما توقع، كان متحفظًا تمامًا حين التقاه، لكن بافات نطق أخيرًا بكلمة السر:

ـ أنا بافات جودا، أخو هاتان، وجئت لإعادته معي.

كان وقع الجملة شديدًا على مسامع مالادان، فقد سمع كثيرًا بالحكايات الأسطورية التي ينسجها هاتان عنه وكيف

عاد من الموت ثم اختفى. كان بافات شخصية أسطورية في نظر الكثير، لكنه كان حقيقيًا جدًا في ذلك اليوم. لم يبُح مالادان بأي شيء، وأشار إليه أن ينتبه ولا يتحدث مع أحد.

ـ تعال الليلة هنا، سنتحدث عن هذا الأمر.

كانت الأمور تتم بسريّة هنا، بينما كانت الأصوات تتعالى في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة حيث يضطجع خسرون مع ثلاث فتيات في حين يلقي كيتان بالذهب على الجنود الذين يتسابقون لالتقاط كل قطعة ذهبية. كانت أيامًا لا تنسى حيث ترقد تحت أقدامهما أودية من الذهب.

قال خسرون في لحظة سكر:

ـ أتعلم يا كيتان، أنا أحق منك بالحكم.

قهقه طوبيل ونوسان على حديث المخمور، لكنه كان يعي ما يفعله، فاقترب وهو يترنح ثم جثا على ركبتيه وأمسك رقبة كيتان بيديه الضخمتين وبدأ بخنقه فيما انشغل الجميع بالضحك والرقص، استمرّ ممسكًا عنق كيتان الذي كان يرتعش متذكرًا أيام التعذيب في نيروت وغرفة الكهرباء التي أضعفت جسمه شيئًا فشيئًا وأتلفت أعصاب يديه فلم يستطع الخلاص من قبضة خسرون. لم تمر دقائق حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يحملق في وجه غريمه وجحظت عيناه وتدلّى لسانه، قام خسرون وانتبه الجميع لما حصل فقال بهدوء:

ـ لن يكون هناك من هو أعلى مكانة مني بعد اليوم!

نظر طوبيل ونوسان والعاهرات والجنود بخوف وصمت مطبق، فتابع بسخرية:

ـ هيا لنكمل سهرتنا، لا تدعوا الأحداث الصغيرة تزعجكم.

كانت الأيام التالية للجزيرة تنفجر توتّرًا لكن أحدًا لم يجرؤ على إغضاب خسرون. أصبح الحاكم المطلق، وحلّ مجلس الحكم ونقل طوبيل ونوسان إلى الجيش تحت إمرة الجنرال تمام، لم يكن يثق إلا بتمام وحسيم لذا أحال أمور الجيش إليهما وأمرهما بالشدة على السكان، وقلل من صلاحيات الجنرال موشار، وخفّض الهبات التي كانت تمنح، فهابه الجميع وكرهوه.

لكن شخصًا واحدًا لم يكن ليهابه، ذلك هو السجين هاتان، كان يقبع في سجن بارد ضيّق لا يشاركه فيه سوى بعض الصراصير والجرذان التي تم إدخالها عمدًا. كان السجن يسلخ من ذاكرته كل شيء، مملكته، عائلته، حتى اسمه الذي لم يعد أحد يناديه به مذ دخل هذا المكان وأصبح اسمه السجين رقم 23 كان يهذي من البرد والحسرة حين دخل عليه موشار في غفلة من الجند حاملًا صحنًا من الشوربة وقطعة خبز طريّة.

ـ هل هناك شيء أستطيع فعله لك يا سيدي؟

ـ لا يا موشار، شكرًا على عطفك.

همّ بالخروج لولا أن هاتان أمسك يده وهَمَس:

ـ اذهب إلى التاجر ربيع وأخبره أنني بحاجة إلى مساعدته.

انطلق موشار إلى بيت التاجر، كان بيتًا هائل الحجم مكتظًا بالخدم والحاشية، استضافه ربيع ورحب به ووعده ألا يترك هاتان في محنته أبدًا، قاما معًا وذهبا ذلك المساء إلى بيت مالادان حيث وجدا بافات عنده ولم يكونا قد رأياه من قبل.

ـ مالادان، هل لنا بالحديث معك على انفراد؟

قام بافات فورًا وهمّ بالخروج، لكن مالادان أشار إليه أن ينتظر في غرفة نومه، وعندئذ بدأ ربيع الحديث:

ـ إن هاتان يطلب المساعدة، لماذا تخليت عنه يا مالادان؟

ـ لم أتخلّ عنه، أنا أفكر في طريقة مناسبة، لست قويًا لأحارب جند كيتان.

تدخل موشار:

ـ الجيش كله متذمر، ربما أستطيع كسب ولائهم.

ـ وأنا سأستميل السكان بمالي، فلدي الكثير مما لا أحتاج إليه.

قطع مالادان عليهم أفكارهم ونادى بافات:

ـ هذا بافات، أخو هاتان، هل يعرفه أيّ منكما؟

فوجئ الرجلان بوجوده وكانا قد سمعا العديد من الأقاويل بشأنه آكدها أنه ميت، لكنه كان منتصبًا أمامهم بشحمه ولحمه، كثير الشبه بأخيه لكنه أضعف بنية وأكثر تهورًا. كانت تلك ليلة مفصلية تعاهد فيها الأربعة أن يغيّروا الكثير من الأمور.

كانت الأيام التالية مسرحًا للعديد من الأقاويل بعد تسلم خسرون الحكم، لكن أفعاله لم تترك الشيء الكثير للتكهنات، فقد بدأ أعماله القمعية بإعلان عقوبة القتل لكل من يعترض على سياساته فنال التأييد والقبول عنوة، وبدأ يجبر الناس على العمل بنظام إقطاعي يحكمه تجار متنفذون أهمهم عيمان الذي ترك مجلس الحكم طوعًا قبل يوم واحد من عزل نوسان وطوبيل. كان الجميع يقبلون أن يقادوا كالقطيع، حتى أعتى الجنرالات. أما النساء فقد كثرت حالات اختطافهن حيث كان خسرون يطلب امرأة عذراء في كل ليلة، وكان له ما يريد.

في تلك الأثناء جاء دوريان إلى سوبرات متكئًا على عصاه باحثًا عن طبيب يعالج قدمه التي بدأت بالانتفاخ ولم تنفع معها الأدوية والأعشاب. كان في قمة ضعفه وكامل كبريائه وأنفته حين عيّره أحد المارّة:

ـ يا صاحب الثلاثة أرجل!

رفع دوريان العصا وأدخلها بكل قوته في عين الرجل الذي صاح وولول فانقضّ الجميع عليه وضربوه إلى أن تدخل الجنود وأمسكوا به، حُكم عليه بأن تفقأ عينه وأن يوضع في السجن فترة من الزمن. وازدادت مشاكله مشاكل. كان الجنود يجرونه جرًا تحت مرأى الجميع لتفقأ عينه علانية ثم يقذف في غياهب السجن. لم يكن يدري أنه أصبح جارًا لعدوه القديم هاتان الذي يسكن الزنزانة المجاورة.

كانت الأيام التي تمر عليه في السجن تعني تعفّن قدمه وزيادة توسلاته إلى الجنود فقط ليقطعوا ساقه لكن ذلك الأمر لم يتم إلا بعد أيام حين تفشت الغرغرينا في كامل رجله فتم بترها من أعلى الفخذ. كان هاتان الممعن في عزلته يستمع يوميًا إلى صرخات جاره بشفقة وقد تعرّف إليه منذ اللحظة الأولى حين دخل الزنزانة وقال بحنق:

ـ لو كان هاتان هو الحاكم فلن يقبل ذلك!

توالت الأيام على بافات ورفاقه، حيث كانوا يخططون كل يوم لما يمكن أن يجعل الأمور تسير لمصلحتهم. تولى بافات ـ دون أن يطلب ذلك ـ رئاسة الحزب السري وأناط بكل عضو مسؤولية جسيمة، فاستطاع موشار أن يكسب العديد من القيادات داخل الجيش لمصلحته وصارحهم بتذمره من الوضع الراهن فتكوّنت جبهة داخلية معارضة. فيما أغدق ربيع على الناس المال وأصبح بيته مزارًا للبسطاء والكادحين.

أما مالادان فقد واظب على اقتناص الشباب المعارضين للحاكم وأهمهم ماردان وفاتوب وسمحان الذين فعلوا المستحيل لإشعال فتيل الثورة، لكن وبعكس آرائهم المتقاربة الآن، ستكون مصائرهم مختلفة جدًا فيما بعد.

كانت الأيام أيضًا كفيلة بكشف ما حدث لبافات من أهوال في سنوات الموت الفائتة حيث حكى لرفاقه الجدد الأعاجيب.

ـ كنت في حمى جبران الكاهن، هناك تحت الأرض

حيث يسكن هو وقبيلته في حياة لا تشبه أيًا مما نعيشه هنا، إنها حياة سحرية، ومأكولات غريبة، ونساء فاتنات، هناك حياة بكاملها أسفل منا. ماذا؟ ألا تصدقونني؟

ـ نعم، نعم، أنت على حق.

قهقه الجميع وهم يشربون ويتناقشون حول الغد. وكم كان الغد قريبًا.

لم يكن كيتان قبل موته بلحظات يدرك أن قتله سيكون على يد مساعده وهو الذي قاتل من أجل إيصاله إلى هذا المنصب. كان مكر كيتان مذ كان طفلًا سمة أساسية لتصرفاته فقد احتال على أبويه عندما كان يزور المقر السري لأحد أحزاب المعارضة وعمره ستة عشر عامًا فقط أي قبل سجنه بأربعة عشر عامًا، ظلّ يتظاهر بالذهاب لتعلم العلوم الدينية لكنه لم يذهب قط، واستطاع إيهام الجميع بفيض معرفته عبر قراءة الكتب ليلًا. كان المقر السري يمتلئ كل يوم بخطط وتحليلات لا حصر لها للوضع السياسي وآمال الثورة المنسية من الغاضبين على سياسات سانتي حاكم نيروت. لكن، وعلى أي حال، لم يزد قط عدد أعضاء الحزب الذي ينتمي إليه عن خمسين شخصًا تم قتلهم جميعًا على التوالي ما عدا رجلين، أحدهما كان كيتان.

لم يكن الجسر الخشبي الذي يفصل بين منازل بعض عائلات البلدة والطريق المؤدي إلى المقر السري للمعارضة جسرًا عاديًا، كان رمزًا للنضال، فقد قُتل بعض من أعضاء الحزب فوقه أثناء عودتهم إلى منازلهم، ثم رميت جثثهم لتسبح مبتعدة في النهر، لكن آثار قتلهم بقيت محفورة على خشب الجوز ولم يستطع أحد محوها. كان كيتان قد اعتاد

قطع الجسر الخشبي للذهاب إلى مقر التجمع لكنه فيما بعد احتاج لأن يسلك الطريق الرئيس للبلدة ثم الذهاب عبر الغابة المطيرة. لم يكن الكثير في استطاعته عبور الغابة بسبب الوحشة التي تنتاب الناس لمجرد النظر إلى مدخلها المهيب المحاط بالأشجار. كانت تلك مزية يستغلها في الذهاب خفية متعاليًا على خوفه من الأصوات الغريبة التي تصدر من الغابة خصوصًا عند عودته بعد غروب الشمس.

التقى كيتان قبل خمس سنوات من سجنه رفيق دربه نوسان الذي كان عضوًا هو الآخر واستطاع بعلمه الوافر مساعدة أعضاء الحزب على تحديد المكان المناسب لإقامة مقر لا يمكن اكتشافه. كان يكبر كيتان بأربعة أعوام، ورغم ضعف بنيته، فقد استطاع تبوُّء مكانة هامة وتقلّد خلال سنوات قلائل منصب قيادة الحزب فكان المطلوب الأول في سوبرات فترة طويلة.

لكن جميع الخطط التي تم اتباعها لم تمنع جنود سانتي من القبض عليه هو ونوسان ذات يوم خريفي ليشكل ذلك ضربة قاصمة للمعارضة ومن بقي منهم، فتشتت شملهم وسهُل القبض عليهم وإعدامهم. على نحو مفاجئ لم يتم إعدام كيتان ونوسان أملًا في استخراج أكبر قدر من المعلومات منهما وهو ما حصل. فقد عملا طوال سنة كاملة على تسريب المعلومات عن عدد الأحزاب المعارضة وأسماء قادتها.

تم الحكم عليهما بالسجن المؤبد نظرًا إلى تعاونهما، لكن الموت كان أقرب بكثير مع تعدد وسائل التعذيب في السجن، هناك حيث التقيا طوبيل الحكيم الذي كان

يكبر نوسان بسنتين. كان قد مضى عليه خمس سنوات مسجونًا لذا فكان خير عون لهما في التفوق على الآلام وتجنب الموت المنتظر.

كانت صداقتهم مثار إعجاب نزلاء السجن دومًا، فطوبيل كان دائمًا صاحب الرأي والمشورة والمفتش عن الحلول لكل ما يطرأ على أحوالهم، أما نوسان فكان غزير العلم كثير المعرفة وهو الأمر الذي جعل شأنه كبيرًا في السجن لما اخترعه من آلات وأدوات، في حين كان كيتان الماكر يدبّر المكايد ويلتفّ حول القوانين، لذا فلم يكن من الغريب أن يحصل له ما حصل لاحقًا من أهوال كانت ستجعله ـ لو علم بها ـ سعيدًا ببقائه في سجن نيروت.

كان بافات شبيهًا جدًا بهاتان إلى الحد الذي قد يختلط فيه الأمر على قليلي الملاحظة، لكن هاتان كان أضخم جسمًا وأقل سرعة، وقد قرر بافات أن يستفيد من سرعته وخفة حركته في الدخول إلى السجن لكن بقية الرفاق نهروه وأكدّوا له أنه لا يجب أن يفاجئ أخاه بلقاء كهذا فقد ترتفع الأصوات وينكشف الأمر. لذا استعدّ الجميع لتنفيذ خطّة أخرى كانت على وشك كتابة تاريخ جديد للعالم.

كان ربيع وبافات ومالادان يقفون على أسوار السجن من الجهة الغربية المقابلة للبحر، وقد استطاع بافات بخبراته السالفة في الحفر أن يبني خندقًا صغيرًا من تحت السور يستطيع المرء من خلاله العبور إلى خارج السجن ثم تركهما وعاد إلى مقر التنظيم. بقي الاثنان منتظرين، حيث كان موشار في اللحظة نفسها يقف عند زنزانة هاتان حاملًا ملابس مشابهة لملابس السجانين أسفل أطباق العشاء التي تكفل بتقديمها للسجناء بنفسه، وعندما دخل همس له هاتان بأمل:

ـ هل من جديد؟

لم يضيّع وقتًا وطلب منه الصمت واقترب منه قائلًا بصوت خفيض:

ـ البس هذه الملابس وسنخرج فورًا من هذا المكان.

في الزنزانة المحاذية كان يقبع دوريان يتنصت لما يدور لكن أحرف موشار لم تلامس أذنيه. وعندما ارتدى هاتان ملابسه وهمّ بالخروج انتبه دوريان لما يحصل، فقد دخل سجّان واحد وخرج سجانان!

صاح بهما:

ـ ماذا يحصل؟ كيف أصبحتما اثنين؟

تجمّد الدم في عروق هاتان وبقي واقفًا موليًا ظهره له دون أن يلتفت فيما استدار موشار وهو يلوّح بسيفه:

ـ هس! لو نطقت بكلمة أخرى قطعت عنقك!

ـ لقد قمت بتهريب السجين، أعلم ذلك!

فتح موشار زنزانة دوريان وجرّه من قميصه البالي وهمّ بقتله لكن هاتان اندفع في الوقت المناسب وأمسك به وهو يقول:

ـ دوريان، أعلم أنه أنت، لا تخف فسوف أعود وأطلق سراحك، إنه وعد شرف!

ـ هاتان!؟

ـ إنه أنا هاتان، ابق صامتًا، سأعود بعد أيام.

سار الاثنان بهدوء وكان هاتان يلف عمامة من قماش فوق رأسه مغطيًا وجهه لئلا يلحظه أحد، اقتربا من السور الغربي للسجن لكن أحد الجنود كان يقف قريبًا من خندق الهرب، كان الخندق مغطّى بالتراب مرتفعًا قليلًا عن سطح الأرض، ولو دقّق أحدهم قليلًا لكُشف أمرهما مبكرًا.

انتظر الاثنان طويلًا خلف شجرة يمثلان أنهما يتحادثان، لكنهما يراقبان كل حركة وسكنة، وعندما سار الجندي بعيدًا اقتربا من الخندق وبدأ موشار يزيل التربة ثم رفع الأحجار المتراصة أسفل منها. هنالك قفز هاتان قبل أن يهيل موشار التراب سريعًا فوق رأسه ليعيد الأرض كما كانت وهو لا يدري عن ذلك الجندي القادم من بعيد.

كانت النسمات الباردة التي تقطع المكان جيئة وذهابًا هي أول ما لامس وجه هاتان عندما أطلّ برأسه من الضفّة الأخرى، ورغم أنها كانت هي نفسها النسمات التي لفحت وجهه قبل أن يدخل النفق، إلّا أنها كانت مختلفة جدًا، كانت نسمات من الجنة، امتلأ قلبه وروحه انتعاشًا وإحساسًا بالحرية من جديد، وقبض على كل نسمة وكأنها النسمة الأخيرة التي يشتمّها في حياته.

مادًّا يده ليرفعه، كان مالادان يقول:

ـ لقد أصبحت أخف من ذي قبل، ماذا يطعمونك في السجن؟

صعد هاتان إلى السطح ثم عانق مالادان مطوّلًا وقال ضاحكًا:

ـ صدقني، لن تودّ أن تعرف أبدًا.

نزل بثقله على الأرض مقبّلًا أرض الشاطئ بحب ووجهه يتّقد حماسة، كانت سوبرات محبوبته التي أمسك بها من جديد، أطبق بيده على حفنة من التراب ووقف ثم قال:

ـ لن أفرّط في أرضي مرة أخرى.

سمع الجميع أصواتًا قريبة فصاح ربيع بهم صيحة مكتومة:

ـ هيّا، لا وقت لدينا لنضيّعه.

حث الجميع الخطى نحو مكان تجمع التنظيم السري. أردف ربيع:

ـ سيُكشف أمرنا عند الصباح، إنه وقت كاف للعمل.

ساروا بحذر حتى وصلوا، وعندما دخلوا منزل مالادان وأقفل الباب سقط الثلاثة تعبًا وهم يضحكون فرحًا، لكن رجلًا آخر كان يقف وراء ستار إحدى الغرف ناظرًا بذهول نحو هاتان.

لم يكن موشار يدري عن الجندي الذي يقف عند رأسه وهو يهيل التراب على خندق الهرب، فقد تركه ينتهي من عمله ثم قال:

ـ ماذا تحفر هنا؟

استدار موشار ليواجهه عينًا لعين. استدرك الجندي بعد أن رأى رتبته العسكرية:

ـ جنرال موشار؟

حافظ موشار على هدوء أعصابه:

ـ انظر بنفسك.

أزال الجندي التراب وأدخل رأسه قليلًا فعاجله موشار بضربة حجر على مؤخرة رأسه فسقط ميتًا داخل الحفرة. أعاد التراب إلى مكانه وصبّ عليه القليل من الماء ليتماسك ثم أعاد الأحجار إلى مكانها وهرب بهدوء دون أن يدري أن هذا الجندي سيسبب له مستقبلًا متاعب كثيرة.

في الجهة الأخرى من الجزيرة كان مالادان يصبّ كأسًا من النبيذ ويقدمه إلى هاتان قائلًا:

ـ والآن سنقدم لك هدية لا تقدّر بثمن، ولكن قل لي

أولًا، هل تعرف أين يقبع أخوك؟

ـ بافات؟

ـ نعم، ألا تزال تظنّ أنه حي؟

ـ إنه كذلك!

ـ ألم تسأم من الانتظار؟

أسند هاتان ظهره إلى الجدار وقال بحزن:

ـ يقولون إن الأشياء الجميلة تأتي عندما نكف عن انتظارها، لكنّي لم أكفّ عن الانتظار، ولم تأتِ يومًا.

في هذه الأثناء أطلّ بافات برأسه مبتسمًا مادًّا ذراعيه وهو يقول:

ـ لقد أتيت!

كان عناقًا شاعريًا خالدًا لم يقطعه إلّا دخول موشار عائدًا خفية ومرحّبًا بهاتان، لكن أحدًا لم يضيّع الوقت بعد ذلك، فشرعوا من فورهم في التخطيط للغد، ويا له من غد.

(7)

عارية من كل شيء إلا من إصرارها، كانت جافينا تقبع في كومة من الأوساخ وقد زال جمالها ـ أو أغلبه ـ بعد أسابيع من سجنها الرهيب واغتصابها المتكرر وتكبيل قدميها مع يديها خلف ظهرها في غرفة ضيقة تتقاسمها مع الفئران والصراصير والقمل، حتى إنها اعتادت في أوقات متأخرة أن تتغذى ببعض الحشرات عندما ينساها الحراس عدة أيام ويتركونها دون طعام، ثم يتذكرون أمرها عندما تبدأ روائح سيئة بالانبعاث من الزنزانة وقد امتلأت بالفضلات.

لكن الفئران وعلى نحو غير متوقع بدت مفيدة جدًا حين قرضت القيود التي كبّلتها طويلًا. تلك القيود التي جعلت من جافينا وحشًا رابضًا ينام بأعين مفتوحة ويأكل الطعام بفمه مباشرة دون يدين. تقطعت القيود ذات يوم، وتغير كل شيء بعد ذلك.

انقضّت جافينا بشراسة على عنق الحارس الآتي بحساء لم تشربه إلا هوام الزنزانة، فقد دقّت عنقه بحركة واحدة واستلت سيفه وخرجت من السجن بتثاقل من يتعلم المشي من جديد، توكأت على جدران الممر الموحش لتواجه ثلاثة جنود عزّل لم يتوقعوا وجودها بينهم.

قفز كل رجل في اتجاه. ففي حين حاول أحدهم الانقضاض عليها، ركض الثاني نحو سيفه، وهرب الثالث. كان الأمر سهلًا فقد قتلت الأول من فورها ثم انقضّت على الآخر قبل أن يصل إلى سيفه، لكنها تركت الثالث يهرب وذهبت في اتجاه مخالف نحو الماء.

كانت تركض بعجز نحو أحد القوارب الصغيرة الملقاة على الشاطئ مرتدية ملابس الحارس الذي قتلته في الزنزانة وألقت بنفسها داخل القارب ثم جدّفت بعيدًا وهي تشاهد الحراس من بعيد يتواثبون بأسيافهم إليها، لكنها فعلتها وهربت.

أما فيجون فكان غاضبًا جدًا إلى درجة أنه قتل الحارس الذي هرب من مواجهتها، ثم أمر الجميع باللحاق بها وهو ما لم يستطع أحد فعله حيث وصلت جافينا بسلام عائدة إلى سوبرات، حاملة معها العار والآلام وأفكار الانتقام المروّعة.

كانت الجزيرة لوهلة تبدو هي نفسها التي ودعتها، لكنها عند قيامها بخطواتها الأولى لاحظت تغيرًا ما، فالجنود منتشرون في كل مكان رغم أن الوقت كان في أول الصباح والشمس لا تزال تلملم خيوطها وتشدها إلى الأعلى. كان مجيئها في أحد تلك الأيام الغائمة من الخريف، حيث يمكن أن يشعر المرء برذاذ المطر يتساقط ناعمًا على الأكتاف دون أن يؤثر في نشاط السكان الذين يظنّون أن هذا اليوم سيمرّ عاديًا مثلما مرّ بهم اليوم الذي سبقه.

لكن هناك في الشمال، كان هاتان قد سبق السكان

متخفيًا حيث اتجه مع حزبه نحو منزل ربيع الذي بدأ بجمع الناس مبلغًا إياهم أمرًا جللًا سيخبرهم به في ساحة منزله. أما موشار فقد كان قادمًا مع كتيبته من الجيش التي تشكل تقريبًا نصف جنود الجزيرة، وأخبرهم خلال الطريق أن لديه تعليمات معينة يتعين تنفيذها وطلب منهم الالتزام بأوامره مهما كان مداها، وهو ما أثار الاستغراب في نفوس الجنود، لكن ثقتهم به كانت أبعد من أي تصور.

لم تمض ساعات حتى اكتمل توافد الأهالي والجنود وحينئذ ارتقى موشار ومالادان وربيع وبافات منصة صغيرة من الخشب وطلبوا من الحضور الصمت، ثم وصل هاتان رافعًا قبضته محييًا الجموع التي اختلطت أصواتها بين التهليل والاندهاش، لكن هاتان لم يترك مجالًا للتخمين:

- سكان سوبرات، أنا هاتان القائد العام للجزيرة، وقد تعرضت في الأيام السابقة لخيانة أقرب الأصدقاء، لقد خانني كيتان ورفيقه خسرون وآخرون، وأنا الآن هنا أستعيد منصبي، فمن سيساندني؟

ثار لغط بين الناس وهتافات وصراخ مؤيد ومعارض، فيما قفز جنديان من حرس خسرون كانا يتخفيان بين السكان محاولين قتل هاتان لكن موشار وبافات أمسكا بهما، وهنا صاح هاتان:

- أنا ذاهب إلى مركز الجزيرة لقتال الخونة، من يرد أن يلحقني فليأتِ، ومن يرد البقاء فلن ألومه على

ذلك، لكن أي خيانة من الآن فصاعدًا ستكون عقوبتها شديدة، فالجزيرة لن تبقى موطنًا إلا للشرفاء!

تحركت أغلب الجموع، ولم يتخلف إلا نفر قليل من الرجال، كان السكان يريدون أن يحل السلام، ذلك السلام الذي أقنعهم هاتان أنه لن يجيء إلا باقتلاع خسرون وجنده، وهو الذي كانت الأخبار قد بدأت تتوافد عليه بعد أن اكتشف الحراس هروب هاتان من السجن، فأعد من تبقى من جيشه وخرج ليجد الجموع الهائجة تتوعده بالموت.

كانت كل هذه الأحداث بعيدة عن مرأى جافينا التي نامت لأول مرة بأمان تحت ظل شجرة منزوية وكان شكلها أشبه بمشرّدة مجنونة بشعرها المنكوش ووجهها الملطخ بالدماء والأوساخ وملابسها الرجالية. كانت تفوّت على نفسها تلك المواجهة الرهيبة التي جمعت خسرون وهاتان في مركز الجزيرة.

كان هاتان يحتقر خسرون، حتى أنه لم يردّ على تهديداته وطلب مواجهة كيتان، فقد كان يرى فيه أقله ندًّا بعكس خسرون:

ـ لقد قتلت كيتان، وسأقتلك معه، أنت وكل من يقف في طريقي!

لم يكن هاتان يعلم بقتل كيتان، لكنه حين علم بذلك استصغر خصمه، ورفض الحديث وقال لأحد الجنود:

ـ اذهب وائتني برأس خسرون ولننه هذه المسرحية فورًا.

قفز الشاب المتحمس متقلدًا سيفه، وانطلق لقتل خسرون، لكنه حين اقترب كان منحنيًا عند قدمي خسرون الذي عاجله بطعنة بقرت بطنه وأردته من فوره. غضب هاتان وحاول الإقدام لكن بافات أمسك به وهمس:

ـ إنك تستهين بقوته، ابق وأنا من سيقتله.

صاح بافات بصوته الجهوري مناديًا خسرون:

ـ تعال أيها الخائن، أنا أطلبك للقتال، إن كنت رجلًا!

كان خسرون قويًا، لكن ذكاءه كان متقدًا، هو لن يقحم نفسه في نزال كهذا، خصوصًا بعد كل ما سمعه عن قوة بافات وبطشه بجنود سجن نيروت القديم، والأساطير التي نسجت عن موته وعودته إلى الحياة، لذا أوعز إلى ثلاثة من الجنود على رأسهم تمام أن يقتلوه فاندفعوا نحوه بسرعة في معركة غير متكافئة.

أخرج بافات سيفه وقد رُدّت إليه بطولات الماضي واختلطت بهلوسات الحاضر، كان يرى كل شيء كما لو أنه يسير بحركة بطيئة، ثلاثة جنود يقتربون على رأسهم تمام الذي يرفع يديه فوق رأسه والسيف يلتمع بينهما، كانت خطته لقتالهم قد نضجت وأصبحت واضحة جدًا في ذهنه وعرف كل ما يجب عليه فعله قبل أن يهوي سيف تمام على رأسه، لذا فقد تحرك سيف بافات بسرعة البرق ليقطع رأس تمام ويرديه. اضطرب الجنديان وتقهقرا فقذف بافات سيفه ليخترق صدر الجندي ثم التقط سيف تمام وغرسه

في قلب الجندي الآخر بقوة خارقة لا يعلم بافات نفسه من أين استمدها، وظنّ أن ذلك من أعمال جبران الكاهن.

تسمّر الجميع لحظات، وبينما همّ بافات أن يعود إلى خطوط جيشه إذ صاح به مالادان:

ـ ابتعد يا بافات!

لكنه لم يستطع أن يتفادى رمحًا انطلق من الجنرال حسيم وأصابه ليسقط أرضًا وهو يصرخ من الألم ثم يقول بغضب:

ـ كم مرة يجب عليّ أن أموت لكي أحيا!

كان الجوّ جنونيًا ولم يتمالك موشار نفسه من الغضب فأشار إلى الجيش أن يهجم ومن خلفه السكان الغاضبون، تحرك الجميع نحو الأمام لكن وبشكل مفاجئ انسحب خسرون ومن تبقى من جنوده وهربوا نحو الجنوب الغربي باتجاه الأحراش واحتموا داخل مجلس الحكم الذي يحتوي على مركز الجيش والسجن وكنوز الجزيرة وتحيطه الأسوار من كل جانب.

ضرب هاتان حصارًا على المجلس وطلب من خسرون الاستسلام أو الاستعداد للموت، لكن ليت الأمور تسير بهذه السهولة.

كانت سفن القرصان فيجون تقترب من شاطئ سوبرات للبحث عن جافينا التي لا تزال تنعم بنوم هادئ بعيدًا عن كل ذلك الهرج والمرج الذي حل بالجزيرة. وما أن حطت أقدام القراصنة على التراب حتى لاحظوا خلوّ المكان من الناس، فأغراهم ذلك لأن يتوغلوا في الداخل رغم علمهم بخطورة الأمر، وكان فيجون بالإضافة إلى رغبته في الإمساك بجافينا قد أرسل نفرًا من القراصنة للبحث عن رفيقه دوريان الذي غاب منذ أسابيع ونسيَه الجميع في السجن.

كان ألفٌ من البشر متكتلين مع خسرون، وثلاثة آلاف مع هاتان يحيطون بالمركز من كل جانب، وكانت أصوات المعركة تُسمع حتى ممن هم في شرق الجزيرة لذا فقد فطن فيجون لانشغال الجميع وعاد إلى ممارسة هوايته في النهب فاستولى على ما استطاع من الذهب والأدوات الثمينة وهرب مع رجاله عائدين إلى جزيرتهم دون أن يتذكروا ما جاءوا من أجله: جافينا.

أما هي فقد استفاقت أخيرًا واقتربت من الجموع.

كان المنظر مهيبًا، فآلاف البشر يصيحون بصوت

ونفس واحد: (تعيش سوبرات)، (الموت لخسرون). لكنه كان صامدًا رافضًا الاستسلام. وفي لحظة تجلٍّ صرخ مالادان:

- الخندق! نستطيع أن نمرّ من خلاله!

تطوّع أحد الرجال للاستطلاع وهنا نبّهه موشار:

- إن وجدت جثة أحد الجنود ملقاة في الأسفل فهذا يعني أن أحدًا لا يعلم عن الخندق، وإن لم تجدها فارجع فورًا!

نزل الجندي حبوًا واقترب من الجهة الأخرى للخندق ويا للخوف الذي اعتراه حين لم يجد أي جثة ملقاة، ارتد عائدًا لكن رمحًا ساقطًا كالسهم عاجله من الأعلى حيث يقف عشرات الجنود الذين يحمون الخندق وضاعت صرخة موته بين زحام الأصوات.

مرت نصف ساعة قبل أن يقلق موشار ويدرك أن الجندي قد مات، وأخبر هاتان بالأمر ليتراجع عن فكرة الاقتحام من الأسفل. لكنّ هاتان كان يعتبر النصر محسومًا له فلن يصمد رفاق خسرون كثيرًا قبل أن تنفد مؤونتهم من الطعام ويدركوا أي معركة تورطوا فيها.

كان بافات مستلقيًا على ظهره حين أفاق بعد أيام ووجد عند رأسه فتاة جميلة تطبّبه وتعالج كتفه المصابة وقد ظنها حلمًا من أحلامه الشقية التي سيطرت على دماغه وهو فاقد الوعي، وكان قد رأى أيضًا جبران يطمئنه قائلًا:

ـ لا تخف، إنه ليس يومك، فحين يحين موتك، ستكون السماء ملطّخة بالسواد، والأرض مخضّبة بالدماء، والطيور تقصف الناس بالحجارة.

ولم يجد أي تفسير لما قاله جبران.

حاول الجلوس لكن الفتاة أمرته بالبقاء مستلقيًا، ولم يجد بدًا من إطاعتها:

ـ كل شيء انتهى، ستعود سوبرات كما كانت. أنا داليان.

كانت كلمات محيّرة، لكنها لم تبح بأكثر من ذلك، كانت أكثر من ممرضة، فقد اقتربت منه حبوًا، ثم وقفت على ركبتيها أمام جسده وخلعت قميصها.

أما ما حدث في الأيام الفائتة، فلم يكن بأقل إثارة على الإطلاق، فالحصار الذي دام يومين فعل فعلته بالجنود، وفي لحظة بارزة قبل أن يبدأ الاقتحام، سمع

جيش هاتان خرفشة من مكان الخندق ورأوا التراب يتحرك من مكانه فأخرج الجميع سيوفهم واستعدوا لملاقاة القادم، ثم خرج أحدهم رافعًا يديه طالبًا السلام وقال:

- أوصلوني إلى هاتان.

وهو ما حصل.

- إن خسرون يعرض عليك الصلح، لقد وافق على الخروج من أرض سوبرات، شرطه الوحيد أن يذهب بكامل جيشه ونصف الذهب.

ثار الجميع لما سمعوا وهمّ موشار أن يقتل الرسول، لكن هاتان منعه وطلب أن يفكر في الأمر وعاد الجندي إلى المكان الذي أتى منه، وهنا صاح موشار:

- ألا يكفي ما فعله فيجون الحقير من نهب لأموالنا، أتريد أن تسلم ما تبقى من الذهب لخسرون؟ لن نرضى إلا برأس خسرون!

- اصمت يا موشار، أتريد أن تحدث مجزرة هنا؟ إنهم قوة لا يستهان بها، أما الذهب فلن ينالوا منه شيئًا!

وافق مالادان هاتان أن يُطرد خسرون وجيشه من الجزيرة مع عدم المس بالذهب، وهو ما تمّ فعلًا، وخرج خسرون ذليلًا مطأطئ الرأس مع رفاقه محملًا بالخزي وكذلك ببعض الذهب الذي أخفوه سرًا في ثيابهم، وهكذا انتهوا إلى استيطان جزر الشمال التي سميت فيما بعد بمملكة سولانتي، ضمت جيشًا من الأوغاد، ونسجت حولها الأساطير.

أما جافينا فقد التقت هاتان فور انتهاء الأحداث وطلبت الانتقام لنفسها من فيجون وجماعته، وكان الأمر سيتم فعلًا خصوصًا بعد سلبه لممتلكات الجزيرة، لكن هاتان تراجع بعد ذلك:

ـ لا يمكن أن أحاسب فيجون على فعل قام به خارج حدود الجزيرة، خصوصًا وأننا الآن لا ننشد سوى السلام ونريد ترتيب أنفسنا من جديد.

كانت كلماته تنزل كالصاعقة على جافينا التي كانت تنتظر منه المساعدة كصديق قبل أن يكون قائدًا للجزيرة، لكنه خذلها، للمرة الثانية.

أمسكت جافينا بعنق هاتان بشدة وقالت:

ـ إذن فاسمح لي أن أنتقم من دوريان، فقد علمت أنه في السجن.

تذكّر هاتان وعده بتخليص دوريان من محنته، فأجابها:

ـ لا! لقد وعدت بتحريره!

ازدادت قبضة جافينا إمساكًا بهاتان رغم عدم مقاومته لها وظلت شاخصة دقائق بوجهها المحمر وثيابها المهلهلة وعينيها الجاحظتين، ثم أفلتت قميصه وخرجت في صمت ولم يرها أحد بعد ذلك قط.

قام بافات من مهجعه بصعوبة بعد أن قصّت عليه داليان ما جرى في اليومين الفائتين، استند إلى كتفها وخرج إلى حيث رأى الناس يحتفلون بإعادة هاتان إلى منصبه، النساء يرقصن، والأطفال يتدافعون، والسماء تحيط الجميع بجوّها اللطيف وهاتان يقف مناديًا:

ـ بافات، تعال إلى هنا!

كان يخطب في الناس وعندما رأى أخاه من بعيد صاح به مناديًا، ثم عانقه وقدّمه إلى السكان:

ـ ربما لا يعرف أكثركم هذا الرجل، إنه أخي بافات، وله أكبر الفضل في إعادتي إلى هنا. سوف يكون نائبًا لي من اليوم!

فوجئ بافات بما سمع، وعلى الرغم من أنه كان ينوي القدوم إلى الجزيرة فقط لإعادة أخيه إلى أمه، لكن الأمور تتغير دائمًا، تمامًا مثلما تغيرت معظم الأسماء التي تولت أمر الجزيرة فيما مضى، فقد أصبح موشار قائدًا للجيش، وتم تعيين ربيع أمينًا لموارد الجزيرة، وتم إلغاء مجلس الحكم لذكراه السيئة في نفس هاتان واستعاض عنه باختيار

ثلاثة من خيرة رجال الجزيرة للعمل مستشارين للقائد العام وهم ماردان وفاتوب وسمحان.

أما ماردان فكان ابن عم مالادان، وقد رفض مالادان تولي أي منصب وانتحى بعيدًا ورشح ابن عمه ليكون بديلًا له، وقد كان ماردان قصير القامة، ذكيًا وسريع البديهة. فيما كان فاتوب طويلًا أسمر البشرة ومفتول العضلات. أما سمحان الذي كان وجهه الجامد يخفي الكثير من الأمور فقد كان صعب المراس متقد الهمة لا يثنيه شيء عن طموحه. وعلى الرغم من أن هذه الاختيارات كانت تبدو الأنسب، إلّا أن هناك من تنبأ بمستقبل غامض ومخيف للجزيرة، ولم تتكشف الأمور إلا بعد سنوات.

كان بافات قد اقترح على أخيه أن يكون تولّيه لأمر سوبرات محددًا بمدة، وأمعن في التخطيط لقوانين لا يمكن تغييرها أبدًا وإن تغيّر الحاكم، فقال إن القائد العام للجزيرة لا يمكن أن يتعدى مكوثه في الحكم أكثر من ست سنوات، ووقتئذ يتم إجراء انتخابات لتعيين قائد جديد. وقد رأى أن هذا الأمر يتسم بالديموقراطية الحديثة التي شاعت في العديد من الدول، وأن هذه المدة ستكون أكثر من كافية. كما حدّد قوانين لتوزيع الثروات بين السكان وتحسين أمر القضاء. كانت هذه القوانين ستأخذ الجزيرة إلى منحى آخر عمّا آلت إليه الأمور، إلّا أن هاتان أخذ المخطوط منه وقام بتمزيقه بهدوء ثم أشار إلى بافات أن يجلس، وقال:

ـ لقد انتهى زمن اللين يا أخي.

وهكذا كانت الأيام اللاحقة مختلفة تمامًا عمّا رسمه بافات، وهو الأمر الذي سيغيّر تاريخ سوبرات إلى الأبد.

مرت أيام قلائل قبل أن ينفّذ هاتان وعده لدوريان، وحين فتح عليه باب الزنزانة وجده في أسوأ حال وقد اتكأ على الجدار مستسلمًا للموت، محرومًا من الماء والغذاء، ولولا أنه أكل بعض حشرات السجن لما بقي حيًّا. كان منظره غير آدمي، حتى أنه لم يفرح بخروجه من السجن ولم يتحرك فيه شيء، خرج صامتًا دون أن يشكر هاتان لإنقاذه، كان يتوكأ على عصا يستعيض بها عن رجله المبتورة، وكان قاربه على وشك المغادرة بهدوء قبل أن يصرخ:

ـ نحن فرسان الوادي الأصفر لا نموت أبدًا.

ثم اختفى في البحر قاصدًا أرض فيجون.

لم يكن هاتان مهتمًا بما حدث لدوريان ولا بما حدث لجافينا، كان كل همه إعادة الأمن إلى الجزيرة، والتحقق من سلامة دفاعاتها في حال الحرب. كان يردد دائمًا:

ـ الذين ينظرون دومًا إلى الخلف سيقتلهم المستقبل.

لذا فقد عمل على استتباب الأمن وإعلان عقوبة الموت لكل خائن. كان حازمًا في ذلك، فقد قتل رجلًا رفع سيفه ذات يوم وأعلن نفسه قائدًا لسوبرات رغم ما ظنّه الجميع عندما قالوا إن الرجل مجنون وحسب.

كانت الشدّة تحاصر السكان من جديد، ولكن رغم الحزم تجاه الخونة، كان هاتان يوزّع الذهب بغير حدود

رغبة في امتلاك قلوب الشعب والتحقق من ولائهم، فمن كان يبدي الولاء كان ينال الرضا، وهكذا كانت شخصية هاتان الجديدة تتشكّل، تعطي بيد وتأخذ بالأخرى، تبقي اليأس والأمل توأمين في نفس كل رجل، تغطّي المآخذ بالمال والرفاهية، وكان ذلك كافيًا في البدء، فقد ساهمت هذه الأمور في إعادة سوبرات لما كانت عليه من تقدم، بل انتشر في أقصاء الأرض أن سوبرات هي جزيرة الأحلام والملاذ لكل فقير.

لكن في اللحظة التي يتوقع فيها المرء أن الأمر أصبح على ما يرام، يكون ذلك هو الوقت المناسب تمامًا لأن يتغير كل شيء.

انعكس البذخ الذي يعيشه السكان سلبًا في الجزيرة بعد مرور سنتين، فقد قلّ عدد العمال، وانحسرت سبل التجارة، واكتفى الجميع بالاسترخاء وتفريق الذهب على الملذات والحفلات. كانت الجزيرة ذات سمعة طيبة بثرائها فجلبت تلك السمعة مئات العاملين من دول وممالك أخرى حتى امتلأت الجزيرة بهم إلى الحد الذي منع فيه هاتان استقبال أي أحد.

وعندما تزيد الرفاهية والراحة تبدأ مطالب أخرى بالظهور، يرغب الإنسان دومًا في المزيد، فعندما امتلك الملاذ، أراد المأكل، ثم المال، وأخيرًا تطلّع إلى ما هو من صلاحيات الحاكم: المنصب!

وفي الوقت نفسه كانت سعة الجزيرة تضيق بالسكان

إلى اليوم الذي أشار فيه المستشار سمحان إلى هاتان ذات يوم:

ـ ما رأيك في أن نحتل الجزر القريبة منا ونوسع من نفوذنا؟

(8)

وقع بافات في غرام داليان، وأن يقع مثله في الغرام يعني أن هذيانه القديم سوف يعاوده من جديد، فبدأ يزهد في المناصب ويتعلق ببقايا ذاكرته، الوطن القديم والأم، كانت عاطفته تقوده بعيدًا. وكان مع كل خطوة اقتراب من داليان يبتعد عشرات الأمتار عن أخيه، لذا باتت المسافات متنائية.

ـ الجميع يبكون من الحزن، ولكن هل أبكاك الفرح يومًا؟

تذكر بافات ما قاله له جبران في عتمة البحر فراح يبكي فرحًا لأن داليان إلى جانبه، كان يهذي وهو يشاهدها مستلقية أمامه وكأنها حواء مادّة يدها لتناوله تفاحة الخلود. لم يدرِ أي امرأةٍ هي!

لم تكن داليان بأقل من بافات في غرابة أطوارها، فقد كانت متّقدة المشاعر، مشحونة بأوهام الحنين إلى المجهول، إلى وطنها الذي لم يعرف جهته بافات مطلقًا. ورغم أنها نادرًا ما كانت تتحدث عن ذلك معه، لكنه كان يحدثها كثيرًا عن نيروت.

ـ هناك حيث الأشجار ترقص لنا، والأطيار تغنّي دون

كلل، النوايا الساذجة لأهاليها أنقى ألف مرة من انتصارات سوبرات، ما شأني أنا والحرب؟ ما شأني والمناصب؟ هناك حياة لا تشبهها أي حياة، هناك النسيم الذي لا يزال يداعب أنفي برقّته حتى الآن. هناك أمي. أنا وهي لا نزال نلتقي كل ليلة، منذ آخر مرة التقينا قبل سنوات.

غريبان في سوبرات، غريبان وأحجية.

لم يكن نسيم سوبرات وإن كان عليلًا ليعوّض بافات عن وطنه، تلك الرغبة المجنونة في الرحيل ستكون سببًا لأحداث هائلة يمرّ بها قد لا يصدّق كيف كان باستطاعته تجنّبها لو أنه بقي بين أحضان خليلته.

كانت أقرب الجزر من الشرق قد وقعت في قبضة فيجون وهي سلسلة من الجزر الصغيرة، وامتلك خسرون جزر الشمال أو ما يسمى بأرخبيل سولانتي، أما الجزر الجنوبية والغربية فقد كانت تبعد عشرات الكيلومترات. أعدّ موشار الجيش واحتل جزيرتين متجاورتين كانتا الأقرب، يعيش سكانها في سلام وهدوء منشغلين بالتجارة، ولم يبذل جهدًا كبيرًا لإخضاعها. ثم أرسل السكان والعمّال لتطويرها.

لم تمضِ سنة حتى انتعشت الجزيرتان ودبّت فيهما الحياة، ثم عيّن ماردان حاكمًا لجزيرة ميكار، وفاتوب حاكمًا لجزيرة ريجنتي.

كانت ميكار وريجنتي جنتين عائمتين في وسط المحيط، لكن خطوط الملاحة تمر قريبًا منهما ما مكنهما

دومًا من تبادل البضائع والأسلحة وكذلك الاختلاط بالعديد من الشعوب، التي يفضّل بعضها المكوث فيهما فترة، وقد يحدث أن يستطيب التجار المقام فيظلّوا فيهما، لذا اكتسبت الجزيرتان شهرة فائقة، وزاد من ذلك، النهج الذي اتّبعه ماردان وفاتوب في إدارة الحكم بعيدًا عن طرق هاتان القاسية، وهو الأمر الذي سيسبب مشاكل عديدة لهما في المستقبل، حيث أن هاتان كان يوصيهما دائمًا باستخدام السيف في السيطرة على أي طارئ رغم تأكيده أن لهما الحرية الكاملة في إدارة الأمور.

لم يكن توسيع هاتان لمملكته أمرًا قد يروق الخصوم القريبين، لذا كان توجسه كبيرًا واحتياطه أكبر. كان يخشى خسرون ويتوقع هجومًا قريبًا منه. ورغم أن خسرون نأى بنفسه عن أي معركة جديدة لكونه لا يزال في مرحلة إعمار مملكته إلا أن الخطر سيظل محدقًا. فخسرون لن يظلّ مكتوف اليدين أمام نهضة سوبرات. وسيبقى هاتان نادمًا حتى نهاية حياته على أنه ترك لخسرون فرصة النزوح وتكوين مملكة سولانتي المجيدة.

وفي خضم هذه الأحداث كان مالادان ـ الذي نأى بنفسه عن تلك الصراعات ـ قد أدرك أن هاتان سيجرّ البلاد إلى الدمار بسياساته التعسفية ويفقد أهم مزية لسوبرات، وهي أن الناس جاءوا إليها بحثًا عن الحرية. لكنه لم يكن شغوفًا بتصويب تصرفات الحاكم لذا بدأ يكتب في منفاه الاختياري تاريخ سوبرات منذ البدء، منذ أول قدم وطئت الجزيرة قبل سنوات لا يمكن تحديدها بدقة. لم يكن

أحد يهتم بحساب الشهور والسنين، وكأن الزمن قد توقف في سوبرات، لم يكن هناك من يحسب أو يسجّل التاريخ وإن كان مالادان قد قدّر أن الرعيل الأول جاء منذ عشرة أعوام عند قدوم هاتان وهو في الثامنة عشرة، وقد بدأت الآن شعيرات بيضاء تغزو مفرقه. كان الزمن مختلفًا في سوبرات، فسنة واحدة فيها ليست كأي سنة، ويوم في سوبرات كان عن خمسة أيام في مكان آخر. كان ذلك سحرًا اختصت به الجزيرة.

لم يستطع مالادان أن يسجل التاريخ بشكل دقيق، فقد كان يميل بشكل عفوي إلى جانب هاتان في البدء لكنه ما لبث أن عاد إلى الحياد، ورغم عظم شأنه فقد احتفظ سرًا بما كتب خوفًا من أن يقع في يدٍ واشية تفسد ما بينه وبين هاتان لما فيه من تهكّم وتهجم على بعض سياساته.

لم يستطع مالادان أيضًا أن يحيط بتاريخ سوبرات منذ الأزل، فالسنوات القليلة التي عاشها المهاجرون كانت مثل الشعرة الملقاة في البحر بالمقارنة بتاريخ سوبرات العتيق الذي لم تكتب أيامه يد مؤرخ ولم يحط به كاتب من الإنس. كانت أيام سوبرات القديمة مليئة بالدماء والموت والرعب والنضال والغناء والرقص والجمال وكل المتناقضات، هذا ما أكده بافات لمالادان ذات يوم:

- لقد أخبرني جبران الكاهن بذلك، إنني أقول لك الحقيقة، سوبرات ليست هي هذه التي ترى، ليست الأشجار الباسقة ولا الأسوار العالية ولا البروج

الشاهقة، إن التاريخ كله يقبع في الأسفل، هنا، تحت هذه التربة النديّة عوالم أخرى لا يمكن تخيلها، حضارة بأكملها توشك أن تخرج، أنا وجبران وحدنا من نملك الإذن بذلك، إن كنت لا تصدقني فهذا شأنك، لكنني أقول لك، سيحدث هذا الأمر إن عاجلًا أو آجلًا، وحينئذ لن يتمكن أحد من الوقوف دون انهيار كل شيء.

بالرغم من أن مالادان كان مشوّش التفكير، لكنه لم يكن يصدّق حرفًا مما يقوله بافات، أجاب دون أن يرفع نظره عن الأوراق التي أمامه:

ـ اندهاشنا الفوضوي من عبثية الحياة هو السر الأول في صراعنا مع الكون حتى الممات.

لم يفهم بافات شيئًا وظنّ أن الرجل قد جنّ، لذا لم يسهب في سرد قصصه عن جبران والعالم السفلي، لكن داليان كانت تستمتع بمغامراته وأعاجيبه وتتأثر بقصصه أشد التأثر، كانت أول من صدّق بافات لكنها لن تكون الأخيرة، فما سيحدث تاليًا سيغيّر التاريخ الذي كتبه مالادان تمامًا.

لم يكن أحد يدري متى جاءت داليان بالتحديد إلى سوبرات، كانت على هامش الأحداث حتى أصيب بافات بطعنة رمح مميتة اخترقت كتفه وعرضت أن تقوم على تمريضه، وهكذا استمرت أيامًا تسهر على علاجه مستخدمة أدوية لم تبح بسرها لأحد، لكنها اعترفت لبافات أنها

قطفت أوراقًا من شجرة السنديان العتيقة وطحنتها مع بعض المكونات السحرية واستطاعت إعادته من جديد إلى الحياة.

كان امتنانه لها يمنعه من الإصرار على السؤال عن حياتها السابقة، وزاد ذلك ارتباطه العاطفي بها فأصبحا جسدين في روح.

كان سمحان يعمل بشكل دؤوب لأن يعرف الجميع اسمه ومكانته، وأن يهتم سكان سوبرات بما يمكن أن يقدمه لهم من أعطيات، وعلى عكس ما يفعله هاتان أخيرًا من بث الرعب، كان سمحان يمثل الوجه الطيب للسلطة، فكان يساعد من يلجأ إليه في الغالب. وإن كان سمحان يبدو أمام الناس بمنظر حسن، فقد كان يخفي خلف ذلك وجهًا قبيحًا جدًا.

كانت الأمور قد أصبحت كلها تحت السيطرة، واستتبّ الأمن في سوبرات، أعلن الجميع انقيادهم لسلطة هاتان، لذا فقد أمِن شرّهم، أو هذا ما بدا له. ثم بدأ يفكر في الخطر الخارجي، وهاجس خسرون الذي لا يزال يؤرقه ويقض مضجعه، فأشار إليه سمحان أن يبني سورًا عظيمًا يحيط بالجزيرة، وأن يضع في كل ناحية من السور حصونًا ملأى بالحراس الذين يراقبون قدوم أي دخيل ليطرحوه أرضًا برماحهم وهو ما نفّذه هاتان. ثم زيّن مع مرور الأيام جميع مداخل الجزيرة برؤوس المعارضين والدخلاء وكل من تقتله السلطة. كان منظرًا مهيبًا يخشاه كل قادم، الرؤوس على الأبواب وعلى أسنة الرماح، الأسوار العالية، البوابات الكبيرة التي لا تفتح إلا بأمر هاتان أو مستشاريه.

أصبحت سوبرات مقبرة للغزاة، وسجنًا للسكان، فالخارج منها مولود، والقادم مفقود.

منع هاتان الخروج من الجزيرة تمامًا وسنّ قوانين كثيرة لتنظيم التناسل فتم السماح لكل أسرة بولدين فقط، ثم حدد نصيبًا شهريًا من المال لكل أسرة على أن تعمل لإعمار الجزيرة والرقي بها. كانت حضارة مكبّلة، تسير مجبرة إلى مستقبلها، يعيش فيها السكان حياة مصطنعة ليست ذات روح أو نكهة رغم الترف الذي يعيشه الجميع، كانت كذبة كبيرة. وكان البعض في الليالي الهادئة يقسم أنه يسمع أصوات أنين سوبرات، ذلك النشيج الذي يصدر من تحت الأرض باكيًا حرّيته.

لكن الحال كان مختلفًا في جزيرتي ميكار وريجنتي، فقد أبى ماردان وفاتوب أن يحيطاهما بالأسوار، واستمرا في استقبال التجار والقادمين، لكنهما مع ذلك كانا قلقين أشد القلق من قرارهما هذا. فقد كانت الجزر مفتوحة لاستقبال الجميع، حتى الخونة والمرتزقة، وبما أن أسوار سوبرات قد صارت عصيّة على الغزاة، فقد تحولت الهجمات إلى هاتين الجزيرتين، وأصبح المجال مكشوفًا للغزاة، وهو أمر لا تحمد عقباه.

لكن أحدًا لا يستطيع أن ينكر الرخاء الذي عاشه سكّان الجزيرتين، فقد شاع صيتهما في الأرجاء، حتى أن هاتان أقلقه استقلال ماردان وفاتوب في الحكم وكان على وشك أن يبعدهما لولا تلك الأحداث المفاجئة التي أصابت المنطقة بأسرها.

وفي خضمّ ذلك العمل الدؤوب على تطوير الجزر القريبة من سوبرات، كان هناك عمل أكثر جدية يتم في الشمال، حيث مملكة سولانتي معقل خسرون وجيشه، فقد قام بإعادة تنظيم صفوفه وجلب أقسى الرجال من أنحاء المعمورة وقويت شوكته. حتى أن فيجون وفرسان الوادي الأصفر سيصبحون في المستقبل مهزلة مقارنة بخسرون ورجاله.

- إن البشر لا يستجيبون إلا لمن يملك القوة.

هكذا كان يؤكد خسرون لهاتان عندما كانا صديقين:

- حتى لو كنت مغرورًا وخبيثًا وبلا أخلاق فسيطيعك الناس إن كنت قويًا، تذكر ذلك، بل سيخترعون مبررات لطاعتك، وسيقتنعون أنك رجل فاضل، البشر حمقى، جرب أن تكون متواضعًا طيبًا وسيقللون من شأنك فورًا.

عرف هذا الأمر هاتان، لكنه عرفه متأخرًا.

كان خسرون نذلًا حقيقيًا مع أنه كان يرى نفسه يقوم بالعمل الصائب، ولكن من يحدد الصواب فعلًا ومن يحدد الخطأ؟ أليست في النهاية كلها معايير بشرية؟ وربما يرى من يقرأ التاريخ فيما بعد أن الحق كان مع خسرون.

لم يكن مالادان معنيًا بهذه المعادلات الأخلاقية، فقد استمرّ يسجل ما كان في سوبرات من أحداث حتى ملأ عشرة آلاف ورقة بالسواد، كان يكتب ما حصل عبر نظرة علوية لا تعنيها الشخوص.

كانت كلمات خسرون لهاتان ترنّ في أذنيه:

- الفقراء والضعفاء، اجعلهم يخضعون لك يا صديقي. الفقراء في أي وطن يشبهون الأوراق الصغيرة في لعبة الورق، وجودهم لا يعني شيئًا، لكن لا يمكن البدء إلا بهم.

كتب مالادان كل شيء، حتى أنه كان يكتب في النهار، وحين يحين الليل لا ينفك يكمل الكتابة على ضوء شحيح فضعف بصره وتقوّس ظهره وطالت لحيته وقلّ جلساؤه.

وعندما وصل إلى كتابة الأحداث الحالية التي يشوبها القمع والتضييق خشي على نفسه فدفن أوراقه تحت التراب، وأصبح يخرج ما يريده منها فقط حين يريد تعديل شيء ما ثم يدفنه مجددًا، وهكذا استمر الحال به سنة كاملة حتى انتهى من تأريخ كل شيء فخرج من منزله ذات صباح ووجد أن الحياة مستمرة وأن عليه كتابة أحداث سنة كاملة مرّت دون أن يعرف عنها شيئًا. جنّ مالادان وبقي مستترًا في بيته يؤلف أحداث السنة الفائتة ويمزجها بالأساطير والخرافات واستمرّ به الحال يتخبط بين أوراقه حتى كان ما كان من أهوال تشيب لها الرؤوس فيما بعد.

كانت السفن العملاقة لعابون قد تعبت من الارتحال بعد أن جابت المحيطات من الشرق إلى الغرب، فلاحت مقدماتها تغزو المياه القريبة من سوبرات معلنة القدوم. اضطرب الجميع فزعين من هجوم وشيك، لكن هاتان رفع يده وصاح قائلًا للجنود المتمركزين في أعالي الحصون التي تحمي الجزيرة:

ـ هذه أعلام القرصان عابون، إنهم أصدقائي، لا تطلقوا شيئًا.

حطّت السفن على الشاطئ ثم نزل عابون بجسده الضخم وملابسه السوداء وهو يرفع يدًا تشير إلى السلام، ثم يقترب من البوابات الضخمة التي تم فتحها لينزل هاتان من الحصن ويتعانقا بحرارة.

ـ إنه زمن طويل يا عابون، من يصدق أن عقدًا كاملًا سينقضي مذ رحلت؟ أين كنت؟

ـ إنها قصة طويلة، سوف أحكيها لك بعد أن أرتاح.

دُقّت الطبول احتفالًا بمجيء عابون وأقيمت الاحتفالات ثلاث ليال متتاليات، وشارك الجميع في ذلك، بمن فيهم

بافات وداليان اللذان رقصا رقصات رومانسية طوال الليل وسط دهشة القرصان من عودة بافات إلى الحياة.

- هل تصدّق يا هاتان، لم أشاهد جسد بافات يتحرك قط، كل ما كنت أراه هو جثته التي تتأرجح بين كتفيك متنقلّة من مكان إلى آخر.
- هل صدّقتني الآن عندما أقسمت لكم أنه لا يزال حيًا؟

كانت الضحكات تتطاير هنا وهناك، وكؤوس الشراب تدور بين الحاضرين، الجميع في سكرةٍ عارمة، حتى أنهم لم يصدقوا حديث عابون حين أخبرهم عن مغامراته في البحر وظنّوه سكرانًا:

- الحياة مضجرة دون خوض مغامرة مختلفة لتغيير شيء في هذا الكون، وجمال المجهول يكمن في لذّة استكشافه، لا الوصول إليه. لقد قطعت المحيطات جيئة وروحًا، وزرت البلدان في الشرق والغرب، شاهدت أساطير القبائل والشعوب وعشت معهم حتى جلبت معي أسلحتهم واختراعاتهم العجيبة، واقتنصت في رحلاتي أعتى الرجال من أطراف الأرض، إن ما ترونه من سفن ليس إلا سنبلة قمح في حقل ذرة .
- وأين هي؟
- لدي من الرجال والأسلحة والأموال ما يكفي لتملك محيط الظلمات بأسره، لكني أقسمت ألا أستعملها في الظلم، ولذا جئت إليك أيها الحاكم العادل، إنني

مستعد لتشاطر كل ذلك معك ولكني لن أجعل جيشي يدخل في معارك وهمية أبدًا.

رغم أن عابون لم يجب بصراحة عن مكان جيشه لكن هاتان كان يحلم بضم هذا الجيش وتعزيز صفوفه لمقاتلة خسرون لذا فقد انشرح صدره وتلألأت عيناه فرحًا وبهجة، وبدأ يفكر ماذا يفعل.

ثم وفي الليلة الثانية أكمل عابون مغامراته:

- لاحقني سانتي القذر حاكم نيروت حتى أقاصي الأرض، وعندما بدأت سفنه تتضعضع لضعف قدراتها البحرية وبُعدها عن نيروت، عدت لأنقضّ على رجاله الخونة فمحوت سفنه المحملة بمئات المقاتلين، ولم أترك إلا سفينة بها عشرة رجال، أوصلوا الخبر الأليم إلى حاكمهم فاستشاط غيظًا وأعلن عن أكبر مكافأة نقدية للقبض عليّ حيًا، مائة ألف قطعة ذهبية!

- إذن سأسلمك بنفسي إلى سانتي!

ضحك الجميع لما قاله هاتان، لكن عابون أكمل:

- ليس هناك على وجه الأرض من يستطيع منازلتي، تعلم ذلك جيدًا يا صديقي.

قطع بافات الحديث بصوته وهو يغني لحبيبته:

مثل حورية.. لا تتقدم في العمر..

أنتِ جميلة..

رغم أنك في الأربعين..

ثم اقترب من هاتان وهو يترنح قائلًا:

ـ لماذا سمحت لعابون أن يأتي رغم أن الدخول إلى هنا ممنوع؟

أثار كلامه بعض اللغط، فتساءل عابون عن صحة كلامه.

ـ هذا صحيح، نحن مكتفون بما لدينا من سكان، الشرور دائمًا تأتي من الخارج.

ـ غير صحيح يا صديقي، لقد اختلطت بجميع شعوب الأرض، وجدت أن الإنسان مسالم بطبعه، غير مؤذٍ، لذا أصبحت صديقًا للجميع، وقررت أن أكون مثلك، أن أسعى للخير.

ـ هذا كلام فارغ، الأحلام الوردية هذه لا يمكن أن تنمو في عالم حقيقي. الناس لا يمكن أن يستمعوا إلا لصاحب اليد العليا.

كان عابون يستمع وهو غير سعيد بما يقوله هاتان، لذا وفي الليلة الثالثة آثر أن يفهم كل شيء من صديقه القديم مالادان عن حقيقة الأمور في سوبرات، فقاده بعض الموجودين إلى منزله ليجده غارقًا بين أوراقه بلحيته الكثة وشعره المنفوش:

ـ أهلًا يا عابون، ملك البحار، ومجندل القراصنة.

كانت ليلة طويلة، ساعتان من الحديث عن أخبار ما حصل أثناء غياب عابون، وكان مالادان يتحدث وكأنه قارئ للتاريخ من عصر قديم، أو كأنه راوٍ عليم يقصّ بعض ما

حدث ويخفي ما يريد، تتطاير كلماته كالمدفع لتصيب عابون بالدهشة.

في الوقت نفسه كان بافات يسير وحيدًا بعيدًا عن الصخب، باحثًا عن عابون إلى أن سمع صوتًا عتيقًا يقول:

ـ اخرج يا بافات من هذه الجزيرة الملعونة، مكانك الآن في نيروت، اخرج من الأرض الموبوءة.

كان صوتًا يعرفه جيدًا، إنه جبران، كان متواريًا خلف شجرة السنديان العملاقة، تبعه بافات لكنه لم يجد شيئًا، وحين اقترب من الشجرة بدأ رأسه يغلي والأصوات تتساقط داخل دماغه حرفيًا.

ـ ارحل يا بافات، ارحل، ارحل، لم يحن الوقت بعد لتطهيرها.

هم بالسقوط أرضًا قبل أن تلتقطه يدٌ ناعمة، لم تكن سوى يد خليلته داليان التي أعادته إلى مكان الاحتفال وهناك وجد عابون قد عاد وإلى جانبه سمحان وهاتان يتسامرون.

بدأ بافات يهذي وهو يقول:

ـ سمحان القذر، لقد أفسدت جزيرتنا، وأدرت رأس هاتان، أيها الساحر الملعون، أنت السبب في كل ما حصل!

صُعق الجميع لما قاله بافات، لكن سمحان أجاب بهدوء:

ـ اهدأوا، بافات مخمور ولا يعلم ماذا يقول.

ـ لست مخمورًا، أنا.. أنا منهك فقط.. أنت السبب فيما يحصل أيها الثعبان المتلون.

بدأ الغضب يتسلل إلى صدر سمحان لكنه كظم غيظه وقال ضاحكًا:

ـ لا بأس، أنا ثعبان، لكني أحذرك من لدغتي القادمة، إنها مميتة.

قام هاتان غاضبًا وأمسك بافات من قميصه وطرحه أرضًا، فأمسكته داليان ووقعت معه أرضًا.

ـ كفى يا بافات! متى ستنضج وتصبح رجلًا!؟

ـ ومتى ستصبح أنت إنسانًا!؟

اكتفى عابون بالنظر إلى هذه المسرحية ثم قام من مكانه وقال:

ـ أما أنا فقد حان وقت رحيلي.

ـ إلى أين؟

ـ لا أدري، ربما مكاني الوحيد هو البحر.

كان عابون قد قرّر الرحيل، وكالعادة لم يثنه عن قراره أحد، لم يدر أحد ما السبب الذي دفعه لذلك لكن سمحان كان يقسم دائمًا أن زيارته لمالادان هي السبب الحقيقي وراء ذلك، لكن ثقة هاتان بمالادان لم تهتزّ قط.

أما بافات فقد تخلخلت كل معتقداته ولم يعد يثق بهاتان، وهنا التفت إلى داليان قائلًا:

ـ ما رأيك في الرحيل من هنا؟

(٩)

كانت سيرينا الحزينة تفكّر في ابنيها اللذين بدا وكأنهما نسياها، تجاعيد خدّيها اللذين حفرهما الزمن عادت للانكماش بعد رحيل بافات للبحث عن أخيه، كان مرور بضع سنين على رحيله كافيًا لأن يشي بأنهما لن يعودا. تعبت سيرينا من الانتظار لذا استسلمت للعجز والمرض وسقطت أخيرًا ميّتة وحيدة في كوخها الموحش دون أن يدري عن موتها أحد عدة أيام.

كان بافات في لحظة موتها يرقص سكرانًا مع داليان دون أن يدري عنها شيئًا، ورغم ما سيحطّمه فيه ذلك لاحقًا، إلا أن أيام الموت الموحشة تلك مرت هادئة. كانت اللحظات الأخيرة لسيرينا تبدو كئيبة في ظاهرها، لكنها انتظرتها كثيرًا، كانت روحها تتطلّع لأن تحلّق بعيدًا، أن تطوف الدنيا مع هاتان وبافات، أن تظلل أيامهما بروحها، لذا استعجلت الخروج من جسد مرهق. ومع أنه لا أحد في سوبرات قد علم بما حدث إلا أن بافات كان يحس في بعض الليالي بنسمات هواء رطبة تقرص خده مرارًا، كان يفتح يديه للهواء باكيًا ويقول إنها أمه.

كانت الأيام تمر هادئة حتى قرر بافات العودة، وذهب رأسًا إلى أخيه:

- لنعد يا هاتان، هناك الوطن!
- بل هنا، لا وطن لي إلا في سوبرات، إنها حريتي وقلبي.

كان هاتان يصر على الهروب من وطن القمع إلى فضاء الحرية:

- هنا فقط وجدت حريتي، هنا أفكر، هنا أعيش!
- يا أخي! إلى متى تمتلكنا الأفكار والآراء بدلًا من أن نمتلكها؟ نحن مساجين هذا الجسد، مساجين هذا العقل، مساجين الفكرة، كيف نتخلص من تلك الأحمال كلها؟! لقد أصبحت سجين سوبرات، وأنا لا أستطيع أن أشاركك في هذا، فالقيود هي القيود وإن كانت مطلية بالذهب كما يقولون. سأرحل مثلما رحل عامال، وعابون. سأرحل، لأني لا أستطيع أن أدفن نفسي هنا مثل مالادان إلى الأبد.

رفضت داليان الرحيل معه، كان محبطًا لاتخاذها قرارًا كهذا. لكنه اقتنع أنها لن تترك سوبرات أبدًا، وأنها ستنتظر مجيئه مهما تأخر.

تاركًا داليان وحيدة في سوبرات، رحل بافات عائدًا بخيبته. لم يكن بمقدوره أن يعيد هاتان إلى أمه، وعندما عاد لم يستطع حتى هو أن يجدها.

عاد حاملًا معه أحلامًا وحكايات كثيرة يريد أن يقصها لأمه، أن يمشط جدائلها البيضاء، ويشرب معها فنجانًا من الشاي دون أن يشغل نفسه بمشاكل سوبرات

السياسية وجنون المال والسلطة والطمع الإنساني الفريد، لكنه اصطدم بخواء البيت، الموت كان يفوح من كل الاتجاهات.

لم يسمع كلماتها الأخيرة، فآثر أن يقول لها كل ما كان يريد قوله، أصبح يذهب يوميًا إلى قبرها ليقص لها حكايا العالم الجديد. خسر كل شيء فاستبد به الجنون، وبقي محطمًا وحيدًا بين البيت الذي ذرفت فيه أمه سيرينا آخر دمعاتها والمقبرة التي تشاركا فيها في الأحاديث الخرساء.

كانت الأيام السوداء قد أفقدت بافات أحلامه في العيش، لذا لم يستطع أن يغادر بيته وزاد اشتياقه إلى داليان، فتقاسمته أوهام الجنون والوحشة والاشتياق.

بعد أن رحل دوريان عن أرض سوبرات قطع البحر عائدًا إلى صديقه الحميم فيجون، ورغم عتبه عليه لعدم تحريره من السجن، إلا أنه كان مضطرًا للتغاضي عن بعض الأمور، فعاد إلى منصبه نائبًا لفيجون. ومع أن منظره أصبح محزنًا بعد أن فُقئت عينه وبُترت رجله، إلا أنه لم يستسلم قط. لذا فقد اعتاد سريعًا تغطية عينه المفقودة بقبعته الطويلة، ولم يعد يُظهر سوى عين واحدة من وجهه الذي يغطيه دائمًا باللثام ليخفي وصمة العار التي وشمته بها جافينا في تلك الأزمان القديمة، واستعاض عن رجله بعكاز ذهبي صنعه له رجال فيجون، وسيتمرّغ في القادم من أيامه في ملذات الجنس والشرب والغناء بعد أن لم يعد راغبًا في المبارزة والقتال.

لكن دوريان كان لا يزال يملك ذهنًا متقدًا وخبثًا لا يخبو، واستطاع بعد مدة حين أفاق من صدمة السجن أن يعود شيئًا فشيئًا إلى ساحات القتال بقدم واحدة، فكان يحمل سيفًا مميزًا نقش عليه اسمه وكان يغطّي نقصه بالذكاء الفطري الذي يمتلكه والذي يرجّح كفته في أغلب الأحيان.

كان فرسان الوادي الأصفر قد عززوا سيطرتهم على المنطقة البحرية بعودة دوريان ودهائه الذي يتكامل مع

عنف فيجون، لكن في المقابل وفي مكان غير بعيد، وصلت مملكة سولانتي حديثة النشوء والتابعة لخسرون إلى مراحل بعيدة من الازدهار وتنظيم الصفوف، واستطاعت خلال سنتين فقط أن تقذف الرعب في قلوب الجميع، فخسرون كان ملكًا قاسيًا ومستبدًا، الأمر الذي يجعل سانتي حاكم نيروت ليّن الجانب مقارنة به. وقد استقام الحكم لخسرون بعد تعيين الجنرال حسيم ـ المعروف بغلظته وشدته وتركيعه للمعارضين ـ وزيرًا للحرب.

أما نوسان وطوبيل فقد أغاظهما تعيين القادم الجديد جيوفانو قائدًا للجيش، والذي نال ثقته بعد أن أثبت قدراته خلال مواجهات القتال التي كان يجريها خسرون لإبعاد الضعفاء من جيشه. ورغم نحول ورشاقة جسمه فقد استطاع جيوفانو قتل كل من وقف في طريقه بأساليب شنيعة، فكان يقوم بتقطيع أطرافهم بسرعة مذهلة ثم يكمل قتلهم ببطء إما نحرًا وإما طعنًا، لكن الأمر الأكثر قرفًا هو ما يقوم به بعد قتلهم حيث كان يقطع أعضاءهم الذكورية ويلقيها بعيدًا وهو يصرخ:

ـ هل من رجل آخر؟

كان خسرون يرى نفسه في هذا المقاتل الجسور، الذي قام عنوة بحلق شعره وشوّه وجهه بالوشوم والنقوش والخرز. لذا فقد نزل خسرون من كرسيه المطل خلال إحدى المواجهات ورفع يد جيوفانو قائلًا:

ـ من اليوم فصاعدًا سيكون جيوفانو يدي اليمنى وسيفي الذي أقاتل به.

لكن الشيء الذي لم يكن يعرفه أحد قط ولا حتى

خسرون هو أن المحارب الشرس جيوفانو ليس إلا جافينا الجميلة!

فبعد أن غادرت أرض سوبرات غاضبة رحلت إلى أرض سولانتي وغيرت جلدها. فأسمت نفسها جيوفانو وغيرت ملامح وجهها، حتى جسمها الأنثوي أصبح ملفوفًا ومشدودًا لئلا يستبينه أحد. وهناك أقسمت ألا تنتهي حياتها قبل أن تزيل دوريان وجماعته من الوجود وأن تدمر فرسان الوادي الأصفر إلى الأبد.

ولم يكن ذلك اللقاء الشهير بين فيجون وخسرون في جزيرة بورتان قد تم بمحض الصدفة، فقد رتّبت جافينا لذلك وأقنعت خسرون بالتحالف مع فيجون بعد أن فشلت في تأليبه عليه، حيث رفض خسرون تمامًا محاربة فيجون متعللًا بأنه لا يريد كسب أعداء جدد وأن عدوه الأول هو هاتان، لذلك فقد خططت جافينا لتحالف بينهم قد يمكّنها من تفكيك العصابة وقتل رجالها.

ـ حسنًا يا خسرون، إن كنت لا تستطيع قتال فيجون فاجعله إلى جانبك، وهكذا تأمن شره.

وهكذا تم اللقاء بين فيجون ودوريان من جهة، وخسرون وجافينا من جهة أخرى. كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها جافينا وجه مغتصبها، لكنها كظمت غيظها ولم تسِر مع رغبتها الدفينة في قتله، أملًا في أمر أكبر من هذا.

❀ ❀ ❀

لم يكن عامال المنعزل بعيدًا راغبًا في أي مشاركة سياسية جديدة بعد كل ما حصل، فقد اكتفى بالعيش الهادئ في مزرعته، ثم تزوج وأنجب ولدين، وعاش ببساطة سنوات مديدة. لكن، ولسبب لم يعرفه قط، عاوده الشعور القديم بالذنب لرميه صديق السجن تركوت في عرض البحر أثناء هربهم من نيروت. فكّر أنه كان سيعيش مثل بافات لو أنه نقله إلى سوبرات، تكرر كثيرًا أن يراه في منامه وهو ينظر إليه بحزن قائلًا:

ـ هل كان موتي عبثًا؟

خطر ببال عامال أنهما حين هربا من بطش سانتي حاكم نيروت كانا يأملان أن يعودا ذات يوم إلى نيروت جديدة لا يلوثها الاستبداد والقهر. لكن ما حصل هو أن عامال عاد وحيدًا وبقي مستسلمًا للقدر، هاربًا من كل شيء.

لكن الحياة لم تكن يومًا هكذا. لا يستطيع المرء دائمًا الهروب من أفعاله القديمة. ولسوء حظه، فقد كان جواسيس الحاكم على علم بوجوده في نيروت، لكنهم لم يمسكوه وإنما شددوا عليه الخناق فبدأ يشعر بمعاناة كبيرة في التنقل والعيش وكسب الرزق. وفي الوقت نفسه كانت جبهات

المعارضة تعلم بذلك كله وتستغل تذمره من السلطة في استمالته إلى صفهم لما له من ثقل سياسي كبير، وقد وافق أخيرًا بعد عشر سنوات من الصمت قائلًا:

ـ لم يتركوا لي خيارًا آخر!

بدأ عامال مشروعه السياسي بهدوء وقام بضم العديد من الشباب الفتيّ الذين كانوا في مثل عمره عندما هرب من سجن نيروت. كان جلبه للشباب أمرًا متوقعًا، لكن الأمر غير المتوقع الذي قام بفعله هو ذهابه إلى صديقه القديم بافات الذي جُنّ بعد وفاة أمه.

ـ لماذا أضحّي من أجل وطنٍ ما؟

كانت إجابات بافات سريعة وصادمة، تخلو من كل الكلام الشاعري عن الوطن الذي اعتاد الجميع سماعه منه، انتهى كل شيء منذ اللحظة التي ماتت فيها أمه:

ـ وطني لم يعد هنا في نيروت ولا هناك في سوبرات، داليان هي وطني، سأعود إليها، لن أفقد شيئًا آخر بعد اليوم، وابقَ أنت مع وطنك.

ـ هل جننت يا بافات؟ لقد هربت توًا من ظلم أخيك!

رحل بافات مرة أخرى في رحلة من رحلاته التي لا تنتهي، لكنه ترك لعامال خيطًا صغيرًا أكد أنه سيكون له أكبر الأثر فيما سيأتي من أحداث، أشار إليه أن يبحث عن القرصان عابون العظيم وجيشه الجبار:

ـ إنه وحده من يستطيع تدمير حكم سانتي عن بكرة أبيه، لقد رحل أخيرًا عن سوبرات وهو يجوب

المحيطات بحثًا عن الحرية، اذهب إليه، فسيكون خير نصير لكم.

كان عابون يمخر البحر بحثًا عن مغامرة جديدة، قائدًا سفنه عبر بحر الظلمات، ولم يعرف أحد عنه شيئًا على مدى أشهر طويلة حتى طاردته من جديد سفن نيروت، وهنا عرف عامال طريقه وأرسل من يخبره بنيته الاستيلاء على نيروت، وطلب المساعدة منه.

كان عابون يمتلك خمسين سفينة مدججة بأحدث الأسلحة والمدافع والبنادق، ويزيد جيشه عن ثلاثين ألف قرصان قادرين على تدمير أعتى الممالك، لكن عابون كان دومًا ينقصه الفكر السياسي والتخطيط العميق، فكان يخبط خبط عشواء ويكتسح الجزر والدويلات ويبيدها تمامًا. هذا فيما مضى، أما الآن فلم تعد لديه الرغبة الوحشية تلك في الاستيلاء والتدمير، لذا كان يبحث عن مساعدة المستضعفين من الشعوب وهكذا كان طلب عامال هو الطلب المناسب في اللحظة المناسبة ولم يستطع عابون أن يرفض عرضًا كهذا.

ـ لكن جيشي لن يكون ملكًا لأحد. إنه جيش المساكين في العالم، لقد جمعته على مدى السنين، وأصبح لا يخلو من جنس أو عرق على وجه الأرض.

ولأن الأمور تجرّ بعضها بعضًا دومًا، فإن مستقبل جيش عابون سوف يتغير منذ تلك اللحظة التي رفرفت فيها أعلام القراصنة على ضفاف شواطئ نيروت.

أما عامال فلم يكن يشغل تفكيره في هذا الوقت غير تحرير أرضه. انبعثت آلام الماضي وأحلام المستقبل من مرقدها وغدا شغله الشاغل التخطيط والتفكير مع أحزاب المعارضة لرمي كل المصالح الشخصية وراء الظهور، والاتحاد في معركة حاسمة ضد عدو واحد. كان الجميع يشتركون في مصلحتهم النهائية بإخراج سانتي وتحرير كل المعتقلين وإعادة بناء نيروت، لكن من كان يدري كيف سيكون هذا الأمر شاقًا حتى لأكثر المتشائمين.

كان خسرون ينظر بنصف عين إلى فيجون وهو يعرض مطالبه للتحالف:

- سوف نساعدكم بما نملك من رجال وأموال ولكني أطلب أن تساعدوني في مهمتي القادمة.
- وما هي؟
- سوف أحتل ميكار وريجنتي، وأريد منكم أن تهاجموا سوبرات لتشتيت أنظارهم عنا.

رفض خسرون العرض تمامًا، بل فاجأ فيجون بقوله:

- أتعلم شيئًا؟ إن سفني الآن في طريقها إلى هناك! إلى ميكار! وسوف تكون ملكي بعد أيام!

صعق فيجون وقام من كرسيه غاضبًا وقال:

- انتهى النقاش. لا تحالف بيننا!

استغلت جافينا الموقف وجرّدت سيفها قائلة:

- أيها الوغدان، سأقتلكما بسيفي هذا.

تواثب دوريان وفيجون وحرسهما واستعد كل طرف لمعركة حامية، لكن خسرون بدهائه صاح بالجميع:

- كفى! لن تحدث أي معركة هنا، فليعد كلٌ إلى مكانه.

عاد السكون إلى المكان فتابع قائلًا:

- حسنًا، أنا لست أنانيًا يا فيجون، امض بجيشك معي ولنقتسم كنوز الجزيرتين، سوف أعطيك ريجنتي.

حك فيجون رأسه والتفت إلى دوريان الذي أومأ له بالإيجاب، فوافق على الصفقة وخرج الجميع فرحين عدا جافينا التي تمتمت لخسرون:

- ماذا دهاك؟ هل ستسلّمهم الجزيرة بسهولة؟ باستطاعتنا دكّ هؤلاء اللصوص ومحو جيشهم خلال ساعات، فقط امنحني الفرصة!

- لا عليك يا جيوفانو، لن يأخذوا شيئًا!

لم يكن خسرون من الغباوة بحيث يسلّم ميكار إلى فيجون، بل بالعكس فإن أحلامه التوسعية المسعورة كانت تجعله عازمًا على اتخاذ أكثر الحيل والخيانات قبحًا لتعزيز مملكته، ولذا لم يكن جديرًا بالثقة حتى من جافينا التي توجّست خيفة وتذكرت أن انقلابه على فيجون إن حصل لن يكون جديدًا، فقد انقلب في الماضي على حاكمه هاتان، ثم قتل رفيقه كيتان، وهمّش معاونيه نوسان وطوبيل، وبالتالي فإن جافينا نفسها قد تكون الضحية القادمة إن لم تتّخذ احتياطاتها.

انطلق خسرون ومن معه إلى الجزر الجنوبية، ميكار وريجنتي. فيما غادر أغلب الجيش قبل ذلك برفقة نوسان وطوبيل لغزوها، وهناك ستحدث أمور لم تخطر ببال أحد.

أما دوريان فقد جهز جيشه على الفور وانطلق حسب توجيهات فيجون يقطع البحر نحو جزيرة ريجنتي، حيث تم الاتفاق على أن يضمها إلى جزيرته بورتان، فيما ستنضم ميكار إلى مملكة سولانتي.

(10)

كان بافات متكئًا على حافة قاربه الصغير يقشّر برتقالة بسيفه قاطعًا البحر بين نيروت وسوبرات دون خوف من وحوش البحر ولا القراصنة، كان يتمتم مغنيًا لحبيبته البعيدة:

في قلبي ألف بركانٍ

وألف قصيدةٍ

وألف حياةٍ تتشكل

وألف حزنٍ يموت

عندما تبتسمين

كانت خبرته العريضة في الترحال قد علمته أن يتجنب طرق الخطر ولا سيما جزيرة بورتان معقل فيجون ورجاله التي تعترض الطريق بين نيروت وسوبرات. لذا فقد حث الخطى نحو الشمال حتى تخطى الجزيرة ثم عاد باتجاه الجنوب الغربي إلى سوبرات في رحلته الهادئة التي أنهاها في أسبوع مستمعًا إلى هدير الأمواج وتلاطم المياه وهمهمات لم يستبنها جيدًا كانت تنخر أذنه حين يهم بالمنام ليلًا:

ـ احذر الأسوار يا بافات.

كان يعلم أنها همهمات جبران الكاهن، لكنه لم يدرِ

مما يحذر، لذا فقد لفّ في الأيام الأخيرة خرقة بالية حول أذنيه لئلا يسمع شيئًا، لكن الصوت كان وكأنه ينبع من الداخل، من جوف دماغه.

وصل بافات إلى الشاطئ فوجد الأسوار العالية تحيط بالجزيرة من كل جانب، والجنود والرماح والمدافع مصوّبة عليه من الأعلى، رفع صوته عاليًا مخاطبًا الحرس:

ـ أنا بافات، أخو هاتان، آمركم بفتح البوابة لأدخل.

انتظر قليلًا لكن أحدًا لم يرد، اقترب من البوابة وهو يراقب الحرس فشد أحدهم قوسه استعدادًا لإطلاق سهم ناحيته مباشرة، تراجع بافات إلى الوراء مستغربًا ما يحصل.

انتظر وقتًا وأعاد طلبه، لكنه هذه المرة فوجئ بطلقة بندقية طائشة تعبر أمامه فولّى هاربًا إلى قاربه، وابتعد ثم دار نصف دائرة حول الجزيرة ونزل بطريقة غير مفهومة أمام سور حجري طويل لا يمكن تسلقه. وقف دقائق أمام السور حائرًا قبل أن يسمع صوتًا خفيفًا يناديه من بعيد:

ـ من هنا، من هنا.

التفت ولم يجد أحدًا لكنه حدد مصدر الصوت فاقترب من صخرة كبيرة، أنصت فسمع الصوت يتكرر مرارًا، وضع أذنه على الصخرة فهاله ما سمعه:

ـ أنا جبران، تحت هذه الصخرة، ارفعها سريعًا.

حاول رفع الصخرة مستخدمًا كل قوته فلم يفلح في ذلك، استمر في العمل تارة باستخدام يديه وتارة مستخدمًا سيفه، حفر التراب تحت الصخرة وعاود المحاولة حتى

تحركت قليلًا كاشفةً عن سوادٍ تحتها لكنه لم يلمح شيئًا غير السواد.

أزاح بافات الصخرة بعد ساعة من المحاولات ليكتشف وجود سرداب سري أسفل الصخرة تم حفره للتسلل إلى داخل الجزيرة، نزل في العتمة متلمسًا الطريق بيده وأكمل المسير عشرين مترًا قبل أن يصطدم رأسه بكومة من الأخشاب الصغيرة التي أزاحها بيده ليكتشف أول بصيص ضوء يخترق السرداب، أزاح بقية الأخشاب والأحجار ومدّ رأسه خارج الحفرة ليجد نفسه محاطًا بجذوع الأشجار العالية والعشب الأخضر النديّ يهفهفها النسيم من كل جانب، الرائحة المنعشة لغابات الجزيرة لا تزال تملك سحرها الأول، لذا سحب ملء صدره هواء قبل أن يخرج من السرداب ليجد نفسه في منطقة غير مأهولة بالسكان في الجهة الغربية من الجزيرة.

شق بافات طريقه في الغابة حذرًا مما قد يواجهه وذهب متخفيًا إلى بيته الذي ترك فيه خليلته داليان، وهناك لم يدرِ أنه سيقابل منظرًا سيغيّر حياته برمّتها.

كانت داليان مستلقية على ظهرها كاشفة عن كتفيها العاريتين وهي مندسّة تحت فراشها تنظر بذهول إلى بافات الذي فتح الباب دون أن ينطق أحدهما بكلمة. تقدّم بافات قليلًا إلى الأمام قبل أن يفاجأ برجلٍ يقف عاريًا تمامًا في ركن من أركان الغرفة وهو ملآن خوفًا!

لم يكن سوى هاتان!

كانت قوات خسرون قد دخلت إلى جزيرة ميكار، وقد بدا كل شيء هادئًا عندما نزلت القوات في الجزيرة المسالمة والنائية والمعتادة حضور أفواج من الضيوف الجدد، لكن في اللحظة التي يعتقد الجميع أن الأمور جيدة، يمكن أن يحدث كل شيء. وفي تلك اللحظة الفاصلة بين السلم والحرب قبل أن تنطلق أول رصاصة بندقية في هواء ميكار، كان ماردان يتسكع في شوارع الجزيرة ملاطفًا الباعة في السوق معتقدًا أنه يحكم قبضته على كل شيء، لكن صوت الطلقة الأولى آذن بتغير كل شيء، حتى أن بعض جنود خسرون لم يزل يسمع دويّها حتى بعد سنوات من الحادثة.

أعلنت الرصاصة عن نفسها، ثم هطل مطر غزير من الرصاص والسهام والرماح على السكان. كان الهجوم مباغتًا وقويًا إلى درجة أن بعض السكان عندما خرجوا من منازلهم للدفاع عن وطنهم كان كل شيء قد انتهى.

تم قتل الرجال الذين دافعوا عن أنفسهم وأهاليهم، ثم تم القبض على كل من استسلم إلا قلّة ممّن استطاع النفاذ بجلده عبر البحر، فيما تم الإبقاء على حياة ماردان حتى يقرر خسرون ما يفعل.

وعندما حضر خسرون بعد أيام، جمع الرجال في جهة والنساء في جهة والأطفال في جهة، واقترب من ماردان قائلًا:

ـ لن أقتلك قبل أن تشاهد قتل كل هؤلاء أمام عينيك!

احمرّت عينا ماردان غضبًا وقهرًا لكنه لم يستطع فعل شيء، فيداه مكبّلتان خلف ظهره، وفمه مغطى بخرقة محكمة الربط، لذا فقد احتمل رغمًا عنه فظاعة المنظر الرهيب.

أعدم خسرون كل الرجال وألقى بالأطفال في البحر، ثم أمر جنوده فاغتصبوا النساء وقتلوهنّ حتى لم يبقَ أحد.

كانت مجزرة رهيبة شاهدها ماردان بكامل تفاصيلها قبل أن يحزّ خسرون رأسه ويعلقه في أعالي الشجر مع رؤوس كبار قادة ميكار حتى يراهم كل من يقترب من الجزيرة.

أما في جزيرة ريجنتي فقد وصلت سفن دوريان بعد أيام وبدأت الأخبار عن مجزرة ميكار تطير عبر الأثير حين وصل بعض من هرب من هناك.

ـ إنها مجزرة! تم محو جيش ميكار، ولم يبقَ إلا السكان العزّل!

أعلن فاتوب حالة الطوارئ وتأهب الجميع لمعركة محتملة، لكن قوات فيجون كانت تفوق كل تصوّر، وظنّ البعض أن السماء قد اسودّت عندما اقتربت السفن الكبيرة من الشاطئ وبدأت مدافعها تقذف النيران على كل شيء.

كان الجميع يقاتلون بشراسة، حتى النساء والشيوخ، فعلى الرغم من اختلاف الجميع في الملبس والعرق واللون إلّا أن حبًا وحيدًا كان يجمعهم، وهو حب وطنهم الصغير، وذلك ما مكّنهم من تغليب الكفّة لمصلحتهم بعد ساعات طوال من القتال.

بدأت الأمور تتغير ومالت الكفة لمصلحة جيش فاتوب، فرأى أن يذهب بنصف جيشه لإنقاذ ميكار، وترك الجزيرة ظنًّا منه أن الأمور شبه منتهية، وانطلق مع ثلّة من جيشه ليطهر الجزيرتين من الأعداء.

لكنه وعند اقترابه من الجزيرة لاحت له النيران المشتعلة بشكل هائل والرؤوس المعلقة في الأعلى. ومع أنه أوهم نفسه في البدء أنها رؤوس أعدائهم، وأن ماردان لقّنهم درسًا، لكنه سرعان ما أدرك الحقيقة حين رأى رأس ماردان معلّقًا في مقدمة الرؤوس، شاخصًا ببصره إلى الأعلى ومضرّجًا بدماء الغدر.

فزع فاتوب لمّا رأى صديق عمره مصلوبًا في الأعلى، فأمر الجنود فورًا بالعودة إلى ريجنتي، واتجه مع نفر قليل شمالًا نحو سوبرات لإبلاغ هاتان ما حصل وطلب الدعم، والانتقام ممّن فعل ذلك.

كان خسرون وبعد أن انتهى من مجزرته التي صبغت الأرض بالدماء قد أحرق الجزيرة بالكامل ورحل متجهًا إلى ريجنتي، لكنه تلكأ في الوصول أملًا في أن يخسر الجيشان، جيش دوريان وجيش فاتوب، أكبر قدر من الرجال والسلاح،

وتم له ما أراد، فقد مات الكثير في معركة ريجنتي الدامية، ثم وصل خسرون بجيشه الجرار وأجهز على من تبقى من جيش فاتوب وقتل كل الرجال والنساء والأطفال، فيما طفق جيش فيجون يداوي جروحه ويستعيد عافيته.

كانت الجزيرتان خلال سنوات ملاذًا آمنًا للتجار والمسافرين والمهاجرين. لكن ذلك كله انتهى إلى الأبد.

ومع أن التنافس بين خسرون ودوريان كان محمومًا، لكنهما تصافحا بعد ما فعلاه، واقتسما الغنيمة، الذهب والكنوز والأسلحة والسطوة، رغم أنهما كانا يعلمان أنها قد تكون المصافحة الأخيرة، وأن القمة لا تتسع إلا لرجل واحد في بحر الظلمات.

وفي اللحظة التي كان دوريان يشرف على نقل بعض كنوز ريجنتي إلى سفن فرسان الوادي الأصفر، كان خسرون قد جمع جيشه وأعد خطته ثم عاد بعد أن انتهى الجميع من تحميل الكنوز وقال:

ـ شكرًا يا دوريان، قاتلت اليوم نيابة عنّا، ونقلت كنوزنا إلى السفن، والآن لا حاجة لنا لك ولا لرجالك، وستحين ساعتكم جميعًا!

كان الالتفاف على العهود أمرًا متوقعًا من خسرون، لكن دوريان لم يعتقد أنه سيكون متماديًا إلى هذا الحد. وكان على دوريان بعد عدة أشهر أن يهرب خفية في فجر إحدى الليالي الكئيبة لينجو بحياته من خيانة مماثلة.

ـ سوف تندم على فعلتك أيها الوضيع!

أخرج دوريان سيفه واتخذ وضعية القتال وأمر الجيش بالاصطفاف لمواجهة دامية، لكن أحد الجنود جاء يصيح من بعيد:

ـ جيش فاتوب قادم!

كان الجيش العائد من ميكار قد اقترب وبدأ يقصف سفن المحتلّين، استغل دوريان ما حصل وانسحب بجيشه هاربًا ونجا بأعجوبة من حرب محسومة النتائج. أما خسرون فلم يواجه أي مشكلة في القضاء على ذلك الجيش، وخلت الجزيرة له.

كان خسرون يرى نفسه الأفضل والأعلى من الجميع، ورغم أن صفة الغرور تلك قادته إلى قتل وخيانة أقرب أصدقائه بنجاح تام، فإنها ستكون أيضًا بلا شك الصفة التي ستسبب له أكبر الخسائر على الإطلاق.

وقف هاتان مشدوهًا ينظر إلى عيني بافات الذي أخذ ينقّل نظره بين داليان وأخيه، فيما غطى هاتان عورته بيده اليسرى وأشار باليمنى إلى داليان قائلًا:

ـ هذه الوضيعة، لقد أغوتني، إنها مشعوذة!

لم يتمالك بافات نفسه واستلّ سيفه ثم غرزه في بطنها وهو يصرخ:

ـ أيتها الخائنة!

أخرج سيفه يقطر بدماء داليان التي شخص بصرها واندثرت حكايتها وسط حمام من الدم سيجعل منها أسطورة تتكرر في قصص الخيانة والغدر لاحقًا.

ثم التفت بافات والشرر يتطاير من عينه ناحية هاتان لكنه لم يجده، فانطلق يعدو ليلحق به في الخارج لكنه وجده محاطًا بعشرة جنود أشداء.

ـ أيها الجبان، أخرج سيفك وواجهني!

لم يرد هاتان قط، لكنه أشار إلى جنوده ليقبضوا عليه فهجموا دفعة واحدة، حاول بافات أن يقاتلهم وبالفعل أردى أحدهم لكنه أدرك حينئذ أنه لن يستطيع قتال كل

هؤلاء فانطلق هاربًا وتبعه الجنود وسط نظرات الناس الذين حملقوا بذهول.

ـ شجرة السنديان يا بافات.

عاد الصوت الداخلي مخاطبًا إياه ومكررًا أمره له بأن يتوجه صوب شجرة السنديان العملاقة الموجودة في قلب الجزيرة وهو ما فعله حين انطلق يعدو واستطاع برشاقته أن يتجاوز الجنود وأن يضلّلهم حتى لاحت له أغصانها ثم اقترب فلامس جذعها الرهيب المحتجز وسط حديقة لا يدخلها أحد لخوف الجميع من هذه الشجرة الموبوءة.

لم يكد يضع يده عليها حتى سمع أنينًا وصراخًا خفيًا في أذنيه ثم بدأ يقرأ رغمًا عنه:

ـ يا جبران الكاهن، يا حارس الجزيرة وأمير الوادي الميت، احرسني من شياطين الأرض وأدخلني في حماك، أنا بافات جودا، أطرق باب مملكتك قبل أن تلتهمني شرور سوبرات.

انشقّت الشجرة عن باب سحري فتحه بافات في اللحظة الأخيرة قبل أن تناله أيدي الجند وسيوفهم، ثم انغلق الباب.

سقط بافات مسافة طويلة في بئر مظلمة حتى وصل إلى القاع دون أن يتألم من أثر السقوط، بدأ يتحسس الأرض في السواد فلم يستطع تمييز أي شيء في الأرض الحجرية المنبسطة، لكنه بعد قليل سمع أصوات ضحكات نسائية وألحانًا غريبة تعزف بعيدًا، وبدأت الأصوات ترتفع شيئًا فشيئًا.

قطع الأصوات كلها صوت جبران المتحشرج وهو يقول:

- لقد وثقت بي يا بافات جودا، بعد أن خانك الجميع، لا عليك، أنا أعدك أن طلباتك ستلبى، وأن رغباتك ستكون محط عنايتي، لقد حان الوقت أخيرًا. الآن سأتركك لتخفف من غضبك على أخيك وحبيبتك، اختر من شئت من النساء.

ثم أردف قائلًا:

- أما بخصوص الظلام، لا تخف، فقريبًا ستبصر بذهنك كل شيء.

أدرك بافات ابتعاد جبران بعد أن سمع خطواته تتلاشى ثم عادت الضحكات النسائية والأغاني وارتفعت حتى لم يعد يسمع نفسه وهو يقول:

- أين أنتم؟

لكن يدًا حانية لامست شعره ثم نزلت حتى أمسكت يده.

- لا تخف، نحن في خدمتك، سوف ترانا قريبًا ما أن تنقشع الظلمة.

ثم غرق دون أن يدرك في ملذات لا حصر لها من النساء غير المرئيات والطعام الشهيّ والغناء والأحاديث السحرية التي ما فتئت تؤثر فيه حتى مماته.

كان السحر يجول في الأرجاء. والخلود الذي أحس به جعله ينسى كل ما مر به من عناء، سيرينا، داليان، هاتان،

بدأت الأسماء تضمحلّ وتتلاشى والأيام الشاقّة أصبحت فجأة من الماضي فاستعاض عنها بملذّات لا تقاس بمقاييس البشر.

استمر يومين وهو يتمرّغ في نعيم من الظلمة، لكنه أبصر كل شيء في اللحظة التي طلب أن يرى وجه إحدى الفتيات اللاتي لاطفنه.

(11)

كان سانتي حاكم نيروت يمر بموكبه الضخم في البلدة محيّيًا الجميع في إحدى أسواق المناطق الفقيرة بعد أن أيقن الحرس أن المكان آمن، وأن الجميع لا يحملون أي أسلحة. مرّ سانتي بهدوء رافعًا يده إلى الأعلى وراسمًا ابتسامة مفتعلة من أجل كسب ود الطبقة الكادحة، كان الناس يهلّلون مادين أيديهم اليمنى لرد تحية الحاكم عدا رجل واحد وقف مشمئزًا بصمت في مقدمة الحشد خافضًا يده، كان عامال.

لمح سانتي الرجل وأشار إلى أحد مساعديه لكي يقبضوا عليه، كانت خطة ذكية من عامال حين استفزّ الملك، وجعل من نفسه أضحية الخلاص، فحين اقترب الحراس منه صاح قائلًا:

ـ أيهّا الملك، أبعد حراسك عني، هل ستقبض عليّ لأني لم أهتف باسمك؟ نحن لسنا عبيدًا. نموت وتحيا نيروت.

وفي هذه اللحظة بالذات انبرى عشرات المقاتلين من جيش عامال الذين كانوا يترصدون في الخارج حاملين سيوفهم وأسلحتهم، واختلط الحابل بالنابل في معركة شرسة مات في إثرها ربع حرس الملك وأغلب جيش عامال

وعشرات السكان العزّل. كانت معركة غير متعادلة، فقد كان جيش الملك وحرسه السري الموجودون في السوق يقدّرون بالمئات، فيما لم يتجاوز جيش عامال تسعين مقاتلًا، لذا كان النصر المؤزر من نصيب الملك سانتي، فيما فرّ عامال وعشرة من رجاله إلى جهة غير معلومة.

وفي حين أحس رجال عامال بمرارة الهزيمة واليأس وغضبوا منه لرفضه استدعاء جيش عابون في هذه المعركة، كان عامال يعلم جيدًا ما سيحدث بعد ذلك من تغيّرات، فعلى الرغم من تجبّر سانتي وسلالته الحاكمة منذ أجيال وقمعهم المستمر للناس، إلا أن هذه المواجهة كانت تعدّ أول مواجهة مباشرة مع سانتي نفسه. لقد سقطت هيبة الحاكم، وانقطعت الشعرة التي يهاب الجميع قطعها.

بدأ السكان يصارحون بعضهم بعضًا بأفكار لم تكن مألوفة:

- التغيير ليس سيئًا، لماذا نخشاه؟
- لا يمكن أن يظلمك أحد ما لم يكن لديك استعداد للصمت.

كانت آثار الرصاص والسيوف لا تزال محفورة على جدران السوق وأزقتها الترابية، حتى إن الآنية والملابس والأطعمة التي تباع هناك بقيت محتفظة أيامًا طويلة برائحة البارود ولون الدم وأصبح السكان يأتون منقّلين الأقدام بين جنبات السوق ليشاهدوا بأم أعينهم ما حصل، الجثث الملقاة والمتعفنة، الآباء الذين يبكون أبناءهم.

كان المشهد مروّعًا، لكن بقرة نافقة إثر طلقة بندقية كانت أشلاؤها تتوسط الطريق استفزّت رجلًا:

- حتى البقر لم يسلم من أذى سانتي، متى ستثورون أيها الحمقى!

كانت جملة عادية، لكنها أثارت كل من في السوق الذي اهتزّ بهتافات لم تعد خائفة:

- نموت، نموت، وتحيا نيروت.

انطلقت الاعتصامات مدوّية في أرجاء البلدة، وكأن صاعقة قد حلّت على الجميع وأيقظتهم من سبات طويل، خرج الجميع، الآباء والأبناء، النساء، والرجال، حتى اشتعل كل شيء بدويّ سكان نيروت. لم يكن أي من هذا سببه بقرة نافقة، لكنها كانت أيقونة فقط، حتى أنها أصبحت فيما بعد بقرة مقدسة يتذكرها الجميع بشيء من الإكبار والاحترام.

كان البعض يسير مع عائلته مردّدًا الهتافات والأناشيد التي تناقلتها العائلات خفيةً على مدى عقود، فيما كان الرجال الأشداء والشباب المتحمسون يسيرون مندفعين إلى أسوار قصر الحاكم مدجّجين بالأسلحة، التي كانت لا تزيد في بعض الأحيان عن سكين طعام.

وكانت نتيجة متوقعة أن تمتلئ الساحات بجثث المقاومين والمعتصمين، فازداد الغضب أكثر، وازداد الجيش قسوة في الدفاع عن حاكمه.

لم يكن القرصان عابون مرحبًا به من سكان نيروت

للقدوم وتحريرهم من سطوة سانتي، فلا أحد يقبل أن يساعده الغريب على تحرير أرضه، لذا فكّر عامال في خطة للاستفادة من جيش عابون الجرّار، وبالفعل كان له ذلك حين أمدّه عابون بأسلحة لا حصر لها، ثم أشار إلى عابون بأن يهاجم إمبراطورية لام العظمى، التي تربض شمال نيروت.

هاجم عابون بكل قوّته الجهة الغربية من الإمبراطورية، واحتلّ أجزاء واسعة منها فدبّ الفزع في قلب حاكمها وحشد جميع جنده وبدأت الحرب.

كان جيش القراصنة هجينًا من كل الأعراق، فمنهم من كان يهجم بخنجره المعقوف، ومنهم من يهجم ببندقيته، ومنهم من يستخدم المطارق والفؤوس والمناجل والمقاليع والسيوف. الكل يهجم بشراسة وهمجية دون خوف من الموت، والجنود الذين يسقطون أحياء في يد القراصنة يموتون ميتات أليمة، فمنهم من يشق جسده نصفين، ومنهم من يبقر بطنه لينزف حتى الموت. وكان عابون بعد أن يستولي على أي منطقة يقتل كل من يقاوم من الجنود ثم يغادرها دون أن يستعمرها، كان يريد فقط تهديد حكم الإمبراطور ولم يهتم بأن يكوّن دولة أو مملكة.

لكنه وعلى الرغم من بطشه، لم يكن يقتل السكان العزّل، وساعده هذا الأمر على إبقاء ضميره مرتاحًا رغم وحشية أفعاله.

أما حاكم إمبراطورية لام فبعد أن فقد الآلاف من

جيشه، أمر سانتي حاكم نيروت بأن يمدّه بنصف جيشه للمساعدة على طرد الغزاة وهو ما أغضب سانتي أكثر وجعله يقف بين نارين، إما أن يرفض طلب الإمبراطور وإما أن يتورط في حربه ضد عامال.

ولأن نيروت تتبع لحكم الإمبراطورية، فقد خضع سانتي ذليلًا لطلب حاكمها وأرسل نصف الجيش إلى الشمال، فيما بقي النصف الآخر يقاتل بشراسة في نيروت.

وعندما ازدادت الثورة قوة، تصدّر اسم عامال الأسماء، وأصبح القائد العام للثوار، فنظّم الصفوف ودعّم المقاتلين بالأسلحة التي جلبها من عابون، وأصبح الجميع مستعدين لإطاحة رأس سانتي.

كان فاتوب غير قادر على انتظار سفينته لترسو على شاطئ سوبرات، لذا فقد قفز في المياه وراح يجدّف بيديه حتى لامس رمال الشاطئ الذهبية، وقف بصعوبة ثم أسرع إلى البوابة التي تم فتحها ما أن تبيّن الحرس هويته، انطلق يعدو حتى وصل إلى هاتان وهو يصرخ:

- لقد غدروا بنا، إنها الحرب!
- ماذا تعني؟ أي حرب؟
- لقد هاجمنا الأوباش وأحرقوا ميكار وقتلوا ماردان.. ثم هاجموا جزيرتنا، لكن.. أعتقد أننا تصدينا لهم، لا أعلم.. لقد غادرت قبل أن نقضي عليهم.

جنّ جنون هاتان وأعلن الحرب، ثم أمر سمحان بتحريك الأساطيل إلى الجنوب، فاستنفر الجميع طاقاتهم واستعدوا للقتال، وغادر سمحان بنفسه على رأس جيش عرمرم يقوده موشار وفاتوب، فيما بقي هاتان مع نفر قليل من الجند لحماية سوبرات.

كان بقاء هاتان بطلب من سمحان الذي أقنعه بالبقاء لكي يحافظ على تماسك الجزيرة وسكانها، وهو ما كان.

ـ لا تخف، سينتهي كل شيء خلال أيام.

كان وعدًا قاطعًا قدّمه سمحان وهو يحمل قبعته الصغيرة بيده اليمنى ثم انحنى محييًا هاتان، وغادر، ثم تبعه بقية الجيش الذي توزّع على ثلاث سفن عملاقة تضم كل واحدة على رأسها قرابة ألف مقاتل، ويقودها ثلاثة من أشجع القادة، سمحان، موشار، وفاتوب.

كانت السفن تمخر عباب البحر قاسمة إياه قسمين، انطلقت بسرعتها القصوى حتى لاحت حمرة النيران في سماء ميكار.

أما في سوبرات فكان هاتان يجلس على كرسيّه متحرقًا إلى عودة سمحان بالأخبار السارة قبل أن يدخل عليه ثُلة من الجنود حاملين معهم دوريان ليطرحوه أرضًا عند قدميه.

ـ أمسكنا هذا الرجل يريد دخول الجزيرة خفية.

قالها أحد الجنود وهو يشير بإصبع الاحتقار إليه، لكن دوريان بصق عليه فضربه الجندي على وجهه، وهنا صاح هاتان:

ـ كفى!

خفض الجميع أصواتهم، وهنا انتهز دوريان الفرصة ليتحدث:

ـ صحيح أني قرصان وقد أقتل من أجل المال، لكني لا أكذب، أنت تعرفني يا هاتان، لا تصدق ما يقوله رجالك، لقد أتيت لأحذرك، كنت أستطيع الهرب إلى

بورتان، لكني جئت إلى هنا لأخبرك حقيقة ما حدث في ميكار!

- أخبرني، وإياك أن تكذب.

- كانت سفينتنا تمر بالقرب من ميكار قاصدة ريجنتي، ورأيت ميكار تشتعل، لكني لم أتدخل، وبعد أن وصلنا إلى ريجنتي امتدت هجمات خسرون لتصلنا فأحرق ريجنتي كما أحرق أختها، وقتل من جنودنا من قتل، فهرب من تبقى إلى جزيرتنا لترتيب الأوضاع والانتقام من هذا السافل، إنني أقسم بشرف فرسان الوادي الأصفر على صحة ما أقول.

كان دوريان صادقًا في معظم كلامه، إلا أنه أخفى بعض الحقائق، مثل حقيقة أنه أتى إلى ريجنتي للاستيلاء عليها، وكان على هاتان أن ينتظر طويلًا قبل أن يعرف حقيقة الأمر.

- والآن ماذا تريد مني؟

- لا شيء، فقط أريد منك أن تعلم أن فرسان الوادي الأصفر يقفون معك ضد خسرون، وسيقاتلون إن لزم الأمر لدحر عدوانه.

كان النور يسطع شيئًا فشيئًا، ثم اشتد السطوع حتى أن بافات لم يستطع إبقاء عينيه مفتوحتين وغطى بذراعه نصف وجهه إمعانًا في طلب الظلمة، لكن الفضول سرعان ما دفعه لرؤية الأشياء من حوله، ولسوء حظه فإنه لم يجد أيًا من الفتيات والخمور والأغاني الصاخبة التي كانت تؤنس وحشته في الأيام الفائتة. عوضًا عن ذلك وجد أمامه هاتان منتصبًا كالسيف، يقف إلى جانبه ثلاثة جنود في حالة تأهب.

حاول القفز من مكانه والإجهاز على أخيه، لكنه لم يستطع الحركة بسبب تكبيل يديه ورجليه، صاح أخيرًا:

- أين أنا؟
- اهدأ يا أخي، أنت في أمان، لكنني اتخذت بعض الاجراءات اللازمة لضمان سلامتك، وسلامتي.

لم يعِ بافات شيئًا مما يحدث، فأكمل هاتان:

- لقد كنت هائمًا في عالمٍ بعيد عن النظر، كنت تتحدث عن ظلمة ورقص شيطاني وفتيات وغناء، أنت تفقد عقلك بسبب تلك العاهرة، لقد اعتذرت لك وانتهى الأمر!

صرخ بافات بصوت مجلجل:

ـ لم ينته الأمر!

بلع هاتان ريقه خوفًا. ثم ما لبث بافات أن هدأ وقال بصوت خفيض:

ـ لقد قتلتَها يا هاتان وسوف أقتلك، انتظر حتى آتيك بجيش جبران وعندئذ سوف أقلب عاليها سافلها.

وهنا قفز بافات بقوة غريبة محطمًا القيود التي كانت تكبل قدميه وأمسك بعنق هاتان، قبل أن تباغته ضربة أحد الحرس بعقب بندقيته على رأسه ليسقط أرضًا.

اسودّ المكان من جديد فيما كان بافات يتقلب ألمًا وعادت أصوات الموسيقى الخافتة، ونداءات بعيدة، وهمسات هنا وهناك تشوّش عقله، حتى غاب عن وعيه.

ـ مرحبًا من جديد.

جاءه صوت جبران الرخيم من اللامكان. كان قريبًا إلى حد أنه سمع صوته وكأنه يتحدث من داخل عقله.

ـ إنه الوقت المناسب للهجوم، فجيش سوبرات قد غادر، سوف نعيد العدل، إنه وقت خروجك من هذا المكان.

ـ ولكن.. ماذا يحدث لي؟

ـ أنت في عالمي، عالم جبران السفلي، إنه يشبه تمامًا العالم الذي عشتَ فيه ردحًا من الزمن فيما مضى، لكن السواد غطّاه، لقد دمّرت عوالم سوبرات في اللحظة التي خرجت كنوزها إلى الناس. لم يعد ممكنًا أن يحوم الشر أكثر مما هو الآن. أنت مخلّصنا الوحيد

يا بافات. كان مقدرًا لك أن تكون كذلك منذ البدء.

وضع جبران يده على كتف بافات ثم قال:

ـ إني أهب لك كل قدراتي السحرية، والآن هيا لنخرج إلى العالم العلوي.

فتح بافات عينًا ثم الأخرى، وإذ به يجد هاتان مستندًا إلى جدار السجن المفتوح بابه، قائلًا للجندي الذي يقف عند رأسه:

ـ لا تخف، أنا بخير، لماذا ضربت بافات بهذه القوة، كدت تقتله!

ـ إنه بخير يا سيدي القائد، لم يمت.

في هذه اللحظة بالذات انتصب بافات واقفًا والتقط سيف أحد الجنود وقطع رأسه به ثم انطلق وقتل الجندي الذي يقف قبالة هاتان قبل أن يفيق من دهشته، وأخيرًا أمسك بهاتان ووضع السيف على عنقه قبل أن يهدد بصوت عالٍ:

ـ اقتربوا خطوة واحدة وسأقتل قائدكم.

أشار هاتان إلى الجنود بأن يبتعدوا ثم قال:

ـ لا يمكنك أن تقتلني، أنا أخوك.

كان بافات صارمًا وجادًا كما لم يكن من قبل، سحب هاتان إلى الخارج آمرًا الجميع بالابتعاد، ثم قاده إلى منطقة خالية من السكان، وبدأ يقيده إلى إحدى الأشجار مكررًا تهديده للحراس بقتل قائدهم إن هم اقتربوا. اقترب من أخيه وهمس له:

ـ سأقتلك مثلما قتلتَ أمي وحبيبتي داليان.

ـ ماذا تقول؟ أمي لا تزال حية!

ـ لقد ماتت وهي تنتظرك يا أحمق!

لم يكن هناك وقت للحزن، فقد بلغ الخوف مبلغه حين ثبّته إلى جذع شجرة ولامس السيف عنقه مجددًا.

ـ ما زلت أحبك يا هاتان، سأصلّي من أجلك كل يوم.

ـ أنت مجنون، لقد سلب الساحر العجوز عقلك.

ـ تقصد جبران؟ إنه معلمي وقائدي، وسوف أعيد إليه جزيرته ليرجع العدل الذي كان. سامحني يا أخي.

وفي اللحظة التي رفع السيف ليقطع عنقه، استقرّ سهم في بطنه فسقط أرضًا، كان سهمًا بعيدًا جاء من ناحية دوريان، الذي كان يتابع ما يحدث.

في خضمّ هذه المعمعة كان الجنود قد أمسكوا ببافات وأوسعوه ضربًا رغم أنه كان ينزف دمًا من بطنه. اقترب هاتان من أخيه قائلًا:

ـ والآن ستخبرني أين أجد هذا الساحر.

التزم بافات الصمت رغم الركل والسحل الذي ناله من الجميع، حتى من دوريان، ولم يعرف هاتان مكان جبران قط، والحق أن بافات لم يكن يعلم أين يجده أيضًا.

ـ شجرة السنديان!

قال هاتان مخاطبًا من معه، لكن بافات حذّره:

ـ حذار أن تقطعها، كل من يحاول فعل ذلك ستحل عليه اللعنة!

لم يكترث هاتان لكلام أخيه الغائب في دمه وأرسل ثلّة من الجنود إلى تلك الشجرة الضخمة لقطعها فورًا.

ـ إنها مصدر كل الشرور في سوبرات.

استمرّ العمل في قطعها ثلاثة أيام بلياليها، وكان الجنود يسمعون في المساء صرخات خافتة تنبع من داخل الشجرة ودماء تسيل من جذعها مغطية المكان باللون الأحمر، حتى أن البعض انسحب من المهمة خوفًا والبعض الآخر لازمته الكوابيس حتى آخر يوم من عمره، أما الغريب في الأمر فهو أن كل من قطع من الشجرة جزءًا مات بعد مدة ليست بالبعيدة ميتة شنيعة، وهو ما عدّه البعض مصداقًا لنبوءة بافات.

تم حبس بافات وتشديد الرقابة عليه حتى تم الانتهاء من قطع الشجرة وحينئذ أتى هاتان ليطمئن على أخيه ويخبره بأن السحر زال وأن كل شيء سيعود كما كان، وسيسامحه على ما فعله، لكنه ـ ويا لأسفه ـ وجده ميتًا!

توفي بافات أخيرًا بسلام، وقد عاد الهدوء إلى وجهه الذي تغير بعد أن جنّ. كان راقدًا كالطفل، ومعه اندثرت عائلة جودا ولم يبق منها سوى هاتان الذي أدرك أخيرًا أن أمه قد ماتت حقًا مثلما مات بافات، لذا فقد انطوى بحزن باكيًا، واستمر ساعات يبكي في جوار الجثة.

كانت السماء قد استحالت سوداء وأمطرت بعنف بعد قطع الشجرة واستمرت تمطر يومين. وحين انتهى المطر،

كانت سوبرات قد غسلت الدماء التي غطّت باللون الأحمر مكان الشجرة وغسلت معها أحزانها، ولم يسمع أحد بعد ذلك أصوات الأنين والصراخ ـ عدا من قطعوا تلك السنديانة الملعونة ـ كما أن أحدًا لم يسمع بخبر جبران أو يفهم سره إلى الأبد.

(12)

كان عيمان بعد التضييق عليه في سالف الأيام قد رحل مع الراحلين إلى جزيرة سولانتي، وانضم إلى مرتزقة خسرون، فسخّر ماله لتنمية الجزيرة وتسليح الجيش، وقد ظن آنذاك أنه سيرتقي في مناصب المملكة الوليدة، وأنه سيشتري بماله السلطة. لكن خسرون كان متنبهًا لأطماع عيمان، ففضّل لاحقًا أن يبعده عن الجزيرة وهكذا أرسله إلى سوبرات ليكون ضمن الجواسيس الذين ينشرهم في الأرجاء. وفي سوبرات مثّل دور الطريد، وأعلن أن أمواله صودرت وتم إبعاده من سولانتي لأنه كان يرفض سياسات خسرون.

وبهذه الطريقة عاش عيمان سنوات حياة عادية بسيطة لكنه كان طوال الوقت يجمع المعلومات ويرسلها إلى خسرون، وقد أخبره بكل سياسات هاتان الداخلية والأماكن الحساسة ونقاط الضعف في سوبرات.

ثم حين انتهى دور عيمان وقرّر العودة إلى سولانتي، رفض خسرون ذلك وأخبره أنه غير مرحب به وأن عودته تعني قتله، لذا فقد عاش منبوذًا وخائنًا وانتهى به الأمر إلى الجنون والموت بشكل محزن.

لكنه قبل أن يجنّ وحين أراد أن ينتقم وأن يكون له

دور في مجرى الأحداث حذّر هاتان من سياسات خسرون التوسعية وأطماعه في غزو سوبرات وأشياء أخرى كثيرة لم يلقِ لها هاتان بالًا ذلك الوقت. لكنه وعلى نحو مفاجئ تذكر ما حصل بعد حادثة احتلال الجزيرتين واستدعى عيمان وأجبره على البوح بكل ما يعرفه عن سولانتي وجيوشها وقادتها وطريقتهم في الحرب وعنفهم الذي تحدثت عنه الأساطير، وقد كان عيمان سخيًا جدًا في إعطاء المعلومات إلى حد أن هاتان طلب منه أن يعمل لديه، وأمره بالذهاب إلى ربيع أمين موارد الجزيرة وأن يعمل تحت إمرته نائبًا له.

وافق عيمان على مضض أن يعمل تحت إمرة عدوّه اللدود الذي كان منافسًا له في التجارة في وقت من الأوقات. لكنه مجبرًا كتم غيظه وذهب بالفعل.

ـ لن تعمل لدي ولو كان هذا آخر يوم لي في سوبرات!

كان ردّ ربيع قاسيًا، فبالرغم من تواضعه وأخلاقه الحميدة إلا أنه لم ينس يومًا صراعات المال والتجارة بينهما، ولا يزال يذكر تلك اللحظات المهينة التي كان فيها عيمان ذا منصب هام وجرجرته له في شوارع سوبرات.

ـ أما زلت غاضبًا مني يا صديقي؟

أجاب عيمان مخفيًا حقده القديم وهو يضع يده برفق على كتف ربيع، لكن الأخير أنزل يده بعنف وأشار إليه دون أن يردّ بأن يخرج من مجلسه.

لم يحتمل عيمان الإهانة فانفجر غاضبًا:

ـ أيها الدنيء، كنت حقيرًا عندما كنت أنا أملك كل شيء، ستظل أدنى مني مهما حاولت أن تفعل!

وقف ربيع شاهرًا سيفه:

ـ قف ونازلني إن كنت تقدر!

أخرج عيمان سيفه وابتدأ القتال بينهما. ورغم أنهما لم يكونا خبيرين كفاية في المبارزة بالسيوف، لكن الخوف من الموت جعل منهما مقاتلين شرسين، وقد استمر القتال بينهما طويلًا إلى درجة أن الناس بدأوا يتوافدون للحصول على فرصة لمشاهدة المبارزة التي كانت في بعض أوقاتها مضحكة لقلة خبرتهما في القتال.

لكن نهاية المعركة لم تكن مضحكة قط. فبعد أن أصاب عيمان الإعياء، سقط على قفاه وسقط سيفه معه، وعندما حاول الاستدارة لالتقاط سيفه ومن ثم الوقوف، أنشب ربيع سيفه في منتصف ظهره فصاح صيحة مدوّية هزت أركان المكان وأوقفت ضحكات المتفرجين وتعليقاتهم، وتسمر الجميع لرؤية التاجر الكبير عيمان يسقط عاجزًا عن الحركة عدة دقائق إلى أن قام بعض الرجال بحمله وإعادته إلى بيته الذي ظل فيه طريح الفراش حتى آخر نفس من أنفاسه.

زاد احترام السكان لربيع بعد قتله عيمان وكان على وشك أن يصبح بطلًا قوميًا في سوبرات بعد أن أذلّ عيمان المكروه بسبب جشعه وخيانته، لكن هاتان غضب من ربيع غضبًا شديدًا لمخالفته أوامره وطرَده من سوبرات فورًا بعد

أن صادر أمواله، وهكذا خسر الرجلان كل شيء. ففي حين مات عيمان على فراشه وحيدًا بعد أن جنّ وشلّت أطرافه، عاش ربيع الأيام الأخيرة من عمره في نيروت حانقًا على هاتان الذي جحد الدور الكبير الذي قام به لإعادته إلى حكم سوبرات. أخيرًا، شنق ربيع نفسه تحت أحد جذوع الأشجار حين لم يحتمل الذل والفقر.

كان سمحان ذا ذهن متوقد وهمة عالية، ولم يكن من الغباوة بحيث يقاتل خسرون وجهًا لوجه، فجهّز خطة لإضعاف جيش خسرون. وحينما وصل إلى ميكار وجدها أرضًا خربة تفوح منها رائحة الدم والموت والحريق. كانت النسور في الأعالي تحوم حول الجثث المتعفنة، وتنتظر انطفاء النار في الغابات، لكن تلك النيران استمرت شهرًا بأكمله حتى لم يبق شيء تأكله فانطفأت.

لم يضيّع سمحان الوقت، فاتجه إلى ريجنتي وضرب عليها حصارًا من ثلاث جهات، وقام بمناورات بحرية لمنع أي إمدادات من جهة مملكة سولانتي، وبعد أسبوع من الحصار، بدأ جيش خسرون يفقد قوته وصبره فحاول الخروج لكن سمحان كان له بالمرصاد وانقضّ على جيشه بعنف فقتل الأغلبية وأسر البعض لاستجوابهم، وكانت دهشته كبيرة حين رأى قلة جيش خسرون، وعرف لاحقًا من إفادات الأسرى أن خسرون غادر بمعظم جيشه عائدًا وأبقى القلة لحماية الجزيرة. وأن هجماته كان هدفها الأساسي إضعاف حكم هاتان وإذلاله وليس الاستيلاء على الجزر، وكان له ما أراد.

ـ سيهجم قريبًا على سوبرات.

قالها أحد الأسرى بخوف، فاقترب منه سمحان مربّتًا شعره وشكره على إبلاغهم بذلك ثم حزّ رأسه وصرخ قائلًا:

ـ اقطعوا أيدي وأرجل كل الأسرى وأرسلوهم إلى سولانتي.

وهكذا فعل الجنود بعشرين أسيرًا ووضعوهم في مركب يقوده أحد الأسرى الذي تركوه سليم الأطراف ليستطيع القيادة واكتفى سمحان بخصائه.

كانت محاولة يائسة لردّ اعتبار سوبرات، لكن ذلك لم يحجب حقيقة أن خسرون دكّ جزيرتي ميكار وريجنتي وأحرقهما بمن فيهما ومرّغ أنوف هاتان وسمحان والجميع في التراب.

وعندما عاد سمحان إلى سوبرات كان قد أعدّ العدّة لغزو سولانتي، لكن كان عليه ترتيب بعض الأمور قبل ذلك ومعرفة كيف سيتصرف تجاه فيجون وجماعته.

كان يجد نفسه جديرًا أن يصبح أكثر من مستشار للحاكم، راوده مرارًا ذلك الحلم، أن يستولي على حكم هاتان!

ولأنه لم يكن غبيًا وكان يعرف مصيره إن هو تجرأ على هاتان، فقد عدل عن فكرته ورضي بمنصبه موقتًا، فيما كان موشار يسير إلى جانبه وهو بدوره يفكر في أن يتخلص من سمحان الذي أصبح بدهائه يتحكم في كل القرارات التي تصدر من هاتان. وهكذا ستكون الأطماع المتباينة بين القادة هي أساس كل النزاعات في المستقبل.

أما فاتوب، وبعد أن انتهى هو وسمحان وموشار من

تحرير ميكار وريجنتي، فقد عادت إليه الذكريات البشعة لهجوم خسرون ومشاهد الموت والدمار اللذين خلفهما في أرضه. لم يستطع أن يمحو من رأسه صورة ماردان المعلق رأسه في أعالي الشجر، ولا صور الأطفال القتلى والنساء المغتصبات، ولا الحضارة التي انتهت في غمضة عين. كان كل شيء بالنسبة إليه يبدو كالحلم، حتى أنه شكّ في روايته للأحداث عندما بدأ يرويها لمالادان الذي بدأ يكتب كل كلمة بحرص شديد ولم يبدِ تأثرًا كبيرًا لوفاة ابن عمه ماردان.

ـ الإنسان، ذلك المغرور، يريد أن يكون خالدًا حتى بعد مماته.

ـ لقد أنهكت نفسك يا مالادان، متى ستنتهي من هذا الكتاب.

ـ إنه لا ينتهي أبدًا.

ـ وهل ستواصل الكتابة إلى أن تموت؟

ـ سيكمل المهمة بعدي من يستحق شرف ذلك.

كان مالادان يواصل الكتابة دون أدنى اهتمام بأحاديث جانبية لا تؤرخ للجزيرة، لذا تركه فاتوب وعاد إلى حزنه العميق وعزل نفسه مفكرًا في كل شيء.

وفي حين انشغل فاتوب عن الجميع بالتفكير في الماضي، اكتشف سمحان ما حصل من استقبال هاتان لدوريان الذي هرب عائدًا إلى جزيرته ما أن سمع بوصول سفن سمحان.

ـ لقد هاجمنا هو وعصابته، هل جننت لتستقبله؟

لكن هاتان كان مقتنعًا بصدق رواية دوريان فأصرّ على موقفه ونهَرَ سمحان وأمره بالصمت:

ـ أنا أعرف دوريان جيدًا، لا يمكن أن يفعل ذلك.

أسرّها سمحان في نفسه وقال:

ـ هل تعتقد حقًا أن فاتوب قد أخطأ حين ذكر لنا ما حصل هناك؟ سأحضره لك ليقص لك بنفسه ما حدث.

ـ لا أريد أي نقاش عن هذا الموضوع حاليًا، والآن عد برفقة فاتوب واحم الجزر التي أحرقها ابن العاهرة خسرون.

غضب سمحان من طريقة حديث هاتان له وأمْره له بالعودة لكنه لم يكن يجرؤ على مناقشته لذا اكتفى بالصمت وعاد إلى الجزيرتين المحترقتين وهو الأمر الذي أسعد موشار وجعله يصارح هاتان:

ـ إنني أشك في نوايا سمحان.

أدرك هاتان أنه ليس الوحيد الذي يشك في نوايا سمحان وأطماعه، لكنه لم يعلق واكتفى بالقول:

ـ إنني أثق كثيرًا بك يا موشار، قريبًا جدًا ستكون ساعدي الأيمن.

كان هاتان يخطط لإقصاء سمحان عن الجزيرة اتقاء لشره وخوفًا من سلطته وقدرته على الانقلاب عليه، لذا فقد دبر خطة للقضاء عليه، وأشار إليه أن يرحل برفقة فاتوب الذي تلقى تعليمات واضحة وصارمة بقتل سمحان ورميه في

البحر أثناء الذهاب إلى ميكار وريجنتي، لكن سمحان كان حذرًا جدًا وكان يحيط نفسه دومًا بحرسه الخاص ما صعّب مهمة فاتوب واضطره إلى تأجيلها مرارًا حتى وصلوا إلى ميكار.

كان خسرون قد عاد مزهوًّا بنصره المؤزر وهناك أقام الاحتفالات الصاخبة احتفالًا بذلك، فيما كانت جافينا تفكر في كل ما حصل، وانجرافها مع خسرون وتأخر قتلها لدوريان، وبدأت تعيد النظر في طريقة تعاملها مع نزوات خسرون وإفساده مخططاتها.

كانت جافينا تحتسي الخمر في تلك الليالي الصاخبة وتبكي إذ تذكرت في ذروة سكرتها أيام الاغتصاب والذل وأخذت تحادث نفسها:

ـ سوف أمزّقك إربًا إربًا أيها الحقير.

في هذه الأثناء جلس نوسان إلى جانبها ووضع يده على كتفها مبتسمًا:

ـ من هو هذا الذي ستمزقه يا جيوفانو؟

اشمئزت جافينا من وضع نوسان يده بهذه الحميمية فلوَتها بعنف وصاحت به:

ـ لا تلمسني بهذه الطريقة، فأنا لست خليلتك.

احمرّ وجه نوسان من الألم وابتعد ممسكًا ذراعه ألمًا وهو يردد:

ـ ما بال هذا المجنون؟

كانت ذكريات الاعتداء ما زالت ماثلة أمام جافينا، لهذا قررت أن تصارح خسرون برغبتها في الإجهاز على فرسان الوادي الأصفر، لكن خسرون كان مترددًا، وكان يخشى هجومًا وشيكًا من هاتان، وكان يفضّل الاستعداد لحرب أهم وأصعب، فسوبرات كانت دائمًا هي منتهى أحلام خسرون، وهي الأرض الموعودة التي سيبذل لأجلها الغالي والنفيس. أما جزيرة بورتان وجزيرتا ميكار وريجنتي فكانت مجرد مكاسب وقتية لا يجب الانشغال بها.

سوبرات هي عقدة نقص، كان لا بد لخسرون من أن يهزمها. أما جافينا فقد سئمت تربية الأحقاد يومًا بعد آخر، وقرّرت أنها ستهجم وحدها على دوريان، وفي الليلة التالية كان ثلاثمائة جندي قد تحركوا تحت إمرة جافينا سرًا وأبحروا بمراكبهم في رحلة غير معروفة المصير.

جاءت جافينا ليلًا إلى مركز الجيش وجلبت الأشداء من جنود سولانتي وأخبرتهم أنهم في مهمة سرية:

ـ فليجلب كل منكم سلاحه بصمت وليلحقني، إنها مهمة سرية ودقيقة جدًا وسننفذ فيها أهدافًا محددة، لا يمكنني إخباركم أكثر من ذلك، وليعلم المتخاذلون أن مصيرهم الموت، نحن هنا في سولانتي العظيمة، لا مكان بيننا إلا للمحاربين العظام.

أبحرت المراكب باتجاه الجنوب الشرقي، ماخرة عباب البحر حتى لاحت أمامهم في الليلة التالية ملامح جزيرة

بورتان، وعندما اكتشف خسرون رحيل جافينا برفقة الجنود كان الوقت قد فات لعمل أي شيء.

كانت الأقدام المبللة بطين الشاطئ تسرع الخطى نحو مركز الجزيرة، الليل كان يلفّ المكان بردائه، وفرسان الوادي الأصفر يغطّون في نومهم آمنين.

ـ سوف تواجهون قومًا شرسين، فلا تتراجعوا ولا تتخاذلوا، إما أن ننتصر اليوم وإما أن نموت أبطالًا.

أخبرت جافينا جيشها بما عليهم فعله، والتزم الجيش بكل ما أمرتهم به، ولكن الأمور لا تسير دائمًا بمثالية.

كانت نصف الساعة الأولى من المعركة شديدة الوقع على فيجون ورجاله، قتل فيها مائة رجل على حين غرّة، لكن دوريان سرعان ما أعاد ترتيب الجيش وانقضّ بكتيبة أخرى من الخلف فأحاطوهم من كل جانب بثلاثة آلاف جندي. ولأن الكثرة تغلب الشجاعة، فقد تطايرت أشلاء مائتي جندي من جيش جافينا التي أدركت أن الموت آتٍ لا محالة.

اندفعت تبحث كالمجنونة عن دوريان لتقتله ونالت مرادها حين التقته وجهًا لوجه وقد بدا ضعيفًا بعكازه أمام رشاقة وسرعة جافينا.

ـ هل تعرف من أكون؟

صاحت جافينا مخاطبة دوريان الذي تجاهل سؤالها وأشار إلى ثلاثة من جنوده ليقاتلوها لكن جافينا قتلتهم جميعًا خلال دقائق.

ـ والآن جاء دور...

لم تكمل جافينا جملتها قط فقد غرز جندي كان قريبًا من المعركة رمحه في ظهرها فاخترقه وأسقطها أرضًا وتناثر الدم في كل مكان.

بصق دوريان في وجه جافينا ثم أمر أحد جنوده بقطع رأسها وذهب ليتابع سير المعركة دون اكتراث لهويتها. وهكذا ماتت جافينا وأُحرق جسدها دون أن يعرف بأمرها أحد وغابت مع النسيان، ولم تستعد شرفها قط.

(13)

كانت الأحداث في نيروت تزداد سخونة في كل يوم، فقد خسر سانتي نصف جيشه الذي انضم إلى جيش إمبراطورية لام العظمى، وكان يزداد ضعفًا يومًا بعد يوم حيث اتحد الجميع ضده وازدادت هجمات المعارضين شراسة وقوة.

لم يكن هنالك شكّ في أن سانتي سيسقط، لذا فقد حزم أمره، وعندما أعتم الليل فرّ شمالًا إلى سيده الإمبراطور بعد أن نصّب ابنه وصيف على كرسيّ الحكم.

ـ لقد فرّ الحاكم.

صاح الجميع مستبشرين وظنّوا أن الحرب قد انتهت، عادت الأمهات إلى بيوتهن، وخفض الرجال أسلحتهم قائلين إن الثورة قد انتصرت ولا داعي لإراقة المزيد من الدماء.

أعلن وصيف للناس خبر تنصيبه حاكمًا للبلاد ووعد الجميع بوعود رنانة، فتعهد بأن يقيم العدل، ويطلق المسجونين ظلمًا، ويعيّن أهل الثقة، ويوقف القمع والاستبداد.

ثم أرسل إلى عامال طالبًا الهدنة حقنًا للدماء فاستجاب عامال لذلك حتى تتبدّى الأمور.

ـ إنه فخ، سوف يسوقنا جميعًا إلى منصة الإعدام.

قال ذلك أحد كبار قادة المعارضة وهو يرى الجموع قد بدأت تترك الشارع وتتوقف عن الاحتجاجات، لكن عامال رد عليه:

ـ فلنرَ ما سيقدّمه لنا، ثم إن الناس قد أرهقتها الحرب. سوف نتصافح، لكن الرصاص لا يزال في بنادقنا.

كان وصيف ـ على عكس والده ـ ضئيل الجسم هادئ الملامح، تبرز شعرات بيضاء من خلال شعره الأحمر الكثّ رغم أنه لم يكمل عقده الثالث بعد. ورغم ما يقال عن انغماسه في اللذات وابتعاده عن السياسة إلا أنه استطاع إقناع المعارضة بتهدئة الاحتجاجات الشعبية وعيّن لأول مرة في نيروت وزيرًا أول للدولة، وبالطبع كان ذلك الوزير هو عامال.

كانت فرصة ذهبية للنهوض بنيروت، فأعاد عامال ترتيب كل شيء، وكان أول ما فعله هو تنظيم القضاء وإبعاد الفاسدين عنه، ثم أقال جميع الوزراء والمسؤولين وأعاد تعيين آخرين. كان يناضل لإصلاح ما فسد دون إغضاب الحاكم أو المس بمصالحه. كما أنه كسب رضى حاكم إمبراطورية لام عندما أمر عابون بسحب كل جيوشه من الشمال.

لكن عابون لم يبتعد كثيرًا، فربضت قواته في جزر تقع إلى الشمال من نيروت، مستعدة للنهوض بإشارة واحدة،

وكان تفكير عامال منصبًا على الاعتماد على هذا الجيش في أي مواجهة مستقبلًا، لذا فقد بدأ بإبراز ما قام به عابون وجيشه من مجهودات خلال الثورة وبنى تمثالًا له في نيروت وجعل منه بطلًا قوميًا في عيون السكان.

ثم وبعد أن اتجهت الأمور إلى الأحسن، أرسل إلى سوبرات معلنًا استعداده لاستقبال من يرغب في العودة إلى وطنه، وهو الأمر الذي كان في وقت مضى حلمًا بعيد المنال. لكن هاتان رفض عرضه ومنع سكانه من مغادرة الجزيرة، فسوبرات لم تعد محطة للهاربين كما في السابق، بل دولة لا تقل شأنًا عن نيروت، لذا فقد عدّ الأمر إهانة له وكتب لعامال:

ـ أدعوك أنت للعودة إلى سوبرات، هنا العالم الجديد!

كان سمحان قد وصل برفقة فاتوب إلى ميكار وريجنتي مع جيش متوسط العدد لحماية الجزر من أي اعتداء، وظل فاتوب منذ وصوله يتحيّن الفرص للإجهاز على رئيسه دون جدوى.

لكن وقت الانتظار لم يطل حين أتى ذلك اليوم الذي وجد فيه سمحان يتمشّى وحده في منطقة قريبة من الشاطئ دون حراسة، وفي تلك اللحظة بالذات وضع فاتوب يده على خاصرته متحسسًا سيفه الراقد في غمده منذ أمد، خطا خطوات ما لبثت أن أسرعت حركتها حتى اقترب من سمحان، لكن الأخير بحركة مباغتة التفت نحوه شاهرًا سيفه ثم غرزه في بطن فاتوب الذي صرخ واحمرت عيناه وسقط على ركبتيه والدم يتناثر في المكان.

ـ كنت أنوي تأجيل قتلك قليلًا، لكن يبدو أنك مصر على الموت مبكرًا أيها الأحمق.

قالها سمحان وهو ممسكٌ بسيفه المنغرز في أحشائه، ثم أدار السيف وأخرجه وربّت كتفه برفق قائلًا:

ـ لا تخف، سوف أدفنك بشكل لائق.

ابتعد عن محيط الدماء إلى جنوده الذين تسارعوا

بعد سماع صرخة ماردان وأشار إليهم أن يجهزوا عليه ويدفنوه.

صرخ فاتوب صرخة أخيرة:

ـ لقد كان هاتان محقًا، أنت خسيس وستظل كذلك.

التفت سمحان وقفز نحوه بحركة دائرية وحز رأسه في ثانية واحدة:

ـ أنت لا تستحق حتى الدفن، ألقوه في البحر.

كانت كل الأحداث تسوق سمحان نحو تنفيذ خطته الجهنمية بالسيطرة على سوبرات، لذا لم يضيّع الوقت وبدأ بتجهيز خطة للإجهاز على هاتان وجيشه، كان جيشه أقل بكثير من جيش هاتان الذي يقوده موشار ويصعب مواجهته مباشرة لذا قرر أنه لا بد له من التحالف مع أحد أعداء هاتان، ولم يجد أفضل من خسرون ليتحالف معه.

في الجانب الآخر كان دوريان يلملم صفوفه التي بعثرتها جافينا، وكان حانقًا جدًا على خسرون لغزوه ليلًا ونكث العهد بينهم فقرر السفر إلى هاتان ليخبره بما حصل ويحذره وليوطّد علاقته به مجددًا وهو ما حصل فعلًا فاستقبله هاتان بترحاب وشكره على ذلك. ورغم أنه كان من المتوقع أن يكون لقاءً سريعًا ووديًا، إلا أن هذا اللقاء كان علامة فارقة في تحديد مصير الكثير من الأمور في المستقبل.

أما خسرون الذي وصلته أخبار وفاة قائد جيشه وثلاثمائة من خيرة مقاتليه، فقد أيقن أنه خسر تحالف

فرسان الوادي الأصفر إلى الأبد، لذا وافق على عرض سمحان بالتحالف معه ضد هاتان ووعده أن يدعمه بالجند والمال، فيما وعده سمحان بدوره أن يقتسما كنوز سوبرات معًا. وهنا أعد الجميع العدة لغزو سوبرات وأبحرت السفن خلال أيام لتحاصر الجزيرة من كل الجهات، فعلم هاتان بالمؤامرة لكنه كان متأخرًا جدًا، فقد لاحت الجيوش في الأفق، وبدأت الجزيرة تتحصن من أجل معركة فاصلة.

وصلت الجيوش لحصار سوبرات فلم يستطع دوريان النجاة بجلده والرحيل إلى جزيرته، وقرر مساندة هاتان في محنته والقتال معه، لكنه اقترح إرسال بعض الجواسيس لإخبار فيجون بما يحصل وطلب العون منه وهو ما فعله هاتان، بيد أن جميع الجواسيس كانت رؤوسهم تعود محملة في مراكبهم إلى سوبرات وهنا أدرك هاتان ألا مفر من القتال حتى الموت، فأعلن النفير العام وسلّح الرجال والنساء، وعاهد شعبه على أن يدافع عنهم أو يُقتل دون ذلك.

كان جيش خسرون بكامله يقف على الأعتاب، وجميع قادته يقفون متلهفين على العودة إلى المكان الذي طردوا منه فيما مضى شر طردة. نوسان، طوبيل، والجميع تداعت ذكرياتهم ما أن تبدّت أشجار النخيل الباسقة تداعب نظرهم. لحظات عصيبة مرت قبل أن تستقر أول قذيفة مدفع على أسوار الجزيرة المنيعة ليبدأ تبادل إطلاق النار بين الطرفين والذي استمرّ بطيئًا ومنهكًا عدة أيام.

كانت الأسوار قد بدأت تتآكل، والحصون تتهدم،

فمدفعياتها بالكاد تصل إلى السفن المتمركزة في مواقع بعيدة تسمح لها بإصابة أهدافها دون أن تصاب في كثير من الأحيان بأذى.

ـ يجب أن نسلّمهم الجزيرة يا هاتان، لا يمكن أن نصمد أكثر من ذلك.

فاجأ دوريان بكلامه قادة الجيش الذين أصرّوا على مواصلة القتال، ودار اللغط بين الجميع، لكن موشار قطع الأحاديث قائلًا:

ـ لا يمكن لنا أن نصمد أكثر، لكن لا يمكن لنا أن نسلّم هؤلاء الأنذال جزيرتنا ليعيثوا فيها فسادًا.

ـ إذن ماذا تقترح؟

قال أحدهم مستفهمًا، فرفع موشار ناظريه في حزن وإصرار عظيمين وأشار إلى هاتان:

ـ إنها معركة فاصلة يا هاتان، فلنطلب من خسرون أن ينازلك وجهًا لوجه، وليغنم الفائز بالحكم.

صعق الجميع من هذا الرأي ورد هاتان غاضبًا بالرفض:

ـ إنها ليست لعبة يا موشار، إن مصير هؤلاء الناس متعلق بي، ستنتظرهم أيام سوداء مع خسرون، لا يمكن أن أسمح بذلك أبدًا.

ـ أعلم ذلك، ولكنها الطريقة الوحيدة لهزم خسرون، لقد خسرنا معظم دفاعاتنا، ونصف جنودنا. نحن سائرون نحو الهلاك.

كان الأمر صعبًا لكنه الحل الوحيد الذي وجدوه منطقيًا، لذا تمت الموافقة عليه، وسار مرسال هاتان إلى جيش خسرون رافعًا قماشة بيضاء وهناك نقل طلب النزال الذي سرعان ما شاع بين الجميع، وعقد خسرون بعدها اجتماعًا مع قادته وقادة جيش سمحان لبحث الأمر.

ـ لا يمكن أن نقبل ذلك.

كان نوسان حادًا في نقاشه وحذر خسرون من مغبة الانسياق وراء مغامرة كهذه مذكرًا إياه أن النصر أصبح قريبًا، ولا حاجة له أن يقاتل أبدًا، لكن خسرون ركب رأسه وأبت عليه نفسه أن يهرب من لقاء عدوه اللدود هاتان.

ـ أنا خسرون العظيم، لن أهرب من هذا النزال، ليس بعد أن تحداني هذا الوضيع.

عقد خسرون أمره، وأيده سمحان في ذلك القرار تمام التأييد.

ـ الحق أنه نعم الرأي، فإن انتصرت ستكون أنت الملك الأوحد لمحيط الظلمات.

كان سمحان سعيدًا بما حصل، فهو كاسب في جميع الحالات، وقد أعد عدته للتعامل مع أيّ مما سيحدث، كان أذكى الجميع، فسيتقاتل الكبار ليبقى هو متفرجًا منتظرًا كالضبع فريسة جاهزة للأكل. وإن بدا لوهلة أنه الأضعف، فذلك لم يكن صحيحًا تمامًا.

تمت الموافقة وبدأ الطرفان يستعدان للنزال الأخير، لم يكن نزالًا بين قائدين فحسب، بل كان جسرًا نحو السيطرة على جزيرة الأحلام إلى الأبد. تقلّد هاتان سيفه

ودرعه، ودّع الجميع، ومضى نحو خصمه خسرون. كان الأخير مختبئًا خلف لباس حديدي لا يُظهر إلا عينيه، وكان هذا اللباس يثقل حركة خسرون لكنه يقيه شر طعنات السيوف، وقد صممه خصوصًا لمعارك ثقيلة كهذه، فلم يكن مستعدًا للموت قط. أما هاتان فقد مضى بخفة نحو حتفه، لا شيء يحميه سوى درعه الصغير الملاصق له، وكان يعوّل على سرعته وخفة يده في النيل من خسرون.

بدأ القتال عنيفًا فصوّب خسرون كل قوته تجاه درع هاتان الذي أخذ يراوغ يمنة ويسرة ثم وبحركة رشيقة غرز سيفه في بطن خسرون لكنه لم يستطع أن يخترق لباسه إلى جسده فاضطر أن يسحب السيف ويبتعد سريعًا ليتّقي ضربة قاسية من خصمه وجدت طريقها إلى الأرض الرملية فحفرتها حفرًا.

كان القتال منهكًا وبطيئًا إلى درجة أن درع هاتان تكسر خلال ساعات النزال الطويلة فأصبح يعتمد على السرعة في الضرب بالسيف والتراجع قبل أن يشقه خسرون نصفين. لكنه وفي لحظة ما، تذكّر سنوات سوبرات والأحداث التي حصلت فيها منذ أن جاءها لاجئًا متعبًا حاملًا جثة أخيه، وحتى تلك النظرة المنهكة التي لمحها في عيني خصمه الحالي، ثم وفي ثانية دار حول خسرون وعاجله بضربة ثقيلة على ظهره لم تخترق درعه لكنها هزت جسده بعنف وحينما حاول الاستدارة فوجئ بسيف هاتان منتصبًا بين عينيه فخر صريعًا على الفور.

انتصر هاتان ورفع يده عاليًا فيما دكّ جسد خسرون الثقيل الأرض دكًا فهللت جموع سوبرات فرحة بالنصر، غير أن سمحان الواقف على ظهر سفينته أمر الجيوش بالنزول الفوري واحتلال الجزيرة وهو ما حصل حيث أطاع الجميع أوامره المنتظرة والمخطط لها، وساهم نوسان وطوبيل في قيادة الجيوش إلى الداخل فالتحمت القوات ودار الهرج والمرج وتطايرت الرؤوس في الأعالي، فيما انتبذ هاتان لنفسه مكانًا بعيدًا وقد هدّه الإعياء والحزن والألم، لم يكن يرغب في القتال ولا في الهروب، بقي مشدوهًا لما يحصل ولم يتحرك حتى عندما جاءته فرقة من جنود الأعداء تصرخ:

ـ هذا المجرم هاتان، أمسكوا به.

كان كل شيء قد حسم خلال دقائق، فقد تم الإجهاز على معظم قادة الجيش واستسلم البقية بعد ذلك، انقلب الحال خلال نصف ساعة فأصبحت سوبرات تحت حكم سمحان، وكان هاتان يُسحب من شعره فيما تولى ثلاثة من الجنود ضربه وسحله حتى تم رميه في السجن.

كانت الأحداث متسارعة إلى الحد الذي جعل سمحان يحكم قبضته على الجزيرة خلال أيام، فقد أمسك بجميع الشخصيات الهامة والقيادية وألقى بهم في سجون الجزيرة، وأرسل نوسان إلى سولانتي بينما أرسل طوبيل إلى ميكار وريجنتي، وهكذا أصبح يحكم ثلاث ممالك وفرض سيطرته على بحر الظلمات في الأسبوع الأول من توليه الحكم.

كان هاتان ملقى في زنزانة تضم عشرة أشخاص بينهم مالادان ودوريان وموشار، عاش الجميع أيامًا كارثية مليئة بالضرب والتعذيب، لكن دوريان لم يكن ليستسلم هكذا.

في خضم مشاعر الخوف والكآبة والضيق التمعت في ذهن دوريان ذكرى ما حصل له قبل عقد من الزمان في هذا السجن نفسه حين أبقاه هاتان سنة كاملة حبيس المكان الكئيب نفسه:

ـ لقد حفرت خندقًا هنا قبل عشر سنوات، أعرف طريقًا للهروب.

قال دوريان بأمل، ثم بدأ يحفر بيديه المكبلتين تراب الأرضية دون أن يترك لرفاقه مجالًا للتساؤل.

ـ هيا، لا وقت لدينا!

أكمل مطالبًا الجميع بمساعدته أملًا في الهروب من

الجحيم فتعاون الجميع على الحفر في الأوقات التي يغيب فيها الحراس وخصوصًا ليلًا. وأصبحوا يحجبون المكان بأغطية النوم حين يسمعون أصوات قرقعة مفاتيح الحراس.

لكن وفي اليوم الثالث جاء ثلة من الحراس واقتادوا الجميع إلا موشار ودوريان وهاتان.

ـ إلى أين تذهبون بهم؟

صرخ هاتان في الجنود الذين حملوهم على المشي ثم قال أحد الجنود ببرود.

ـ لدينا أوامر بقتل الجميع عداكم.

ثار المساجين، لكن أعقاب البنادق كانت تضرب رأس كل من يقاوم الأوامر. كانت ملامح مالادان هادئة وهو يساق إلى الموت بلحيته الكثة وشعره المنتفش وهو لا يدري لمَ سيقتل، فقد اعتزل الحياة برمتها وعاش مع كتبه التي دفنها أسفل بيته ما إن بدأت الحرب وأبقى كتابًا واحدًا يسجل فيه الأحداث الحالية، لكن الجنود اقتحموا ملاذه وكسروا قلمه الذي وجدوه يحمله وهو يكتب آخر ما حصل خلال الحرب. التقت عيناه عيني هاتان الفزعتين، كانت نظرة خاطفة، لكنها بقيت عالقة في ذهن هاتان حتى موته، اختفى مالادان إلى الأبد ولم يشاهده أحد بعد ذلك، نفذت فرقة الإعدام عقوبة القتل بالرصاص في مالادان وستة من رفقائه.

وحين خلت الزنزانة، عاود دوريان وموشار وهاتان الحفر السريع دون توقف حتى ظهرت الحفرة التي أشار إليها دوريان بعد ساعات طوال، تلألأت أعينهم وبدأت أفكار الحرية وما بعدها من جديد. لكن في اللحظة التي

قرر فيها الثلاثة الشروع في الهرب، سمعوا قرقعة المفاتيح من جديد فأجّلوا التنفيذ حتى يذهب الحرس.

دخل الزنزانة خمسة من الجنود، ووضعوا طبقين فقط للغداء أمام هاتان ودوريان، ثم ودون نقاش أمسكوا بموشار الذي ظل صامتًا، التفت أحد السجّانين إلى دوريان وهاتان وقال:

ـ لم يحن دوركما بعد.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي يُرى فيها موشار، محافظًا على النظرة نفسها التي كانت تملأ وجه مالادان، بلا تعابير، بلا حزن أو خوف أو حسرة، نظرة فارغة لا تنسى.

نظر دوريان نظرة مذنبة نحو هاتان قائلًا:

ـ أنا السبب في كل ذلك.

لم يكن الوقت في نظر هاتان ملائمًا للحديث عن أخطاء الماضي، لكن دوريان تابع كلامه:

ـ لقد سلّمت ميكار وريجنتي لخسرون، ومذّاك لم يعد كل شيء كما كان قبل ذلك.

كانت المرة الأولى التي يبدي فيها دوريان ندمه على شيء فعله، لكن وقت الندم قد فات. لم يردّ هاتان، لم يكن يحس في تلك اللحظات بالغضب من أي أحد. كان كل شيء قد انتهى.

لم يمهل القدر موشار للهرب، لكنه ابتسم أخيرًا لدوريان وهاتان بعد أن خرج الجنود وفتحا المخرج السري، هربا عبر ممرٍ حالك الظلمة وتابعا المسير حتى وصلا إلى نقطة الخروج وهي كوّة في الأرض قريبة من الشاطئ. كان

المخرج مقفلًا، فاحتاجا إلى الحفر ساعة حتى بدأت خطوط الشمس تتسرب إلى الداخل، وأخيرًا خرجا ووضعا أقدامهما على الساحل، ودار هاتان بنظره في الأرجاء فإذا بالخراب يحيط به من كل جانب، الأسوار المتهدمة، المراكب المتكسرة، الأشجار المشتعلة، كل شيء يوحي بالخراب والموت، لم يصدق أنها الجزيرة نفسها التي أسسها وعاش فيها ثلاثة عشر عامًا.

لم يُضع دوريان الوقت وسحب أحد القوارب الملقاة.

- هيا، قبل أن يلحظ هروبنا أحد، سوف نبحر إلى فيجون لنشنّ حربًا ونستعيد بلادك، لن نتركها لسمحان.

لم يرد هاتان وبقي شاخصًا بنظره إلى الأفق حيث بدأت الشمس المغيب، ثم أجاب بعد صمت:

- لا يا دوريان، شكرًا لعرضك، لقد انتهى الأمر.
- نستطيع طلب العون من عابون أو من عامال، إنهما صديقاك.
- انتهت حربي يا صديقي، أنا راحل.

سحب هاتان قاربًا إلى الشاطئ، ركب وحيدًا وجدّف مبتعدًا وهو يستعيد ذكريات كل ما حصل في سوبرات، كان يراها رحلة ممتعة رغم أنه خسر كل شيء، عائلته، وطنه، ونفسه في أحيان كثيرة، لكنه مستعد الآن ليبدأ مغامرة جديدة في أرض أخرى لا يسكنها أحد.

النهاية

خريف لا ينتهي

لم تصدّق الأم سيرينا غوران لحظة أن ابنيها قد ماتا، فكرت في ذلك وهي تتأمل السماء بعد انتهاء احتفالات المئوية الثالثة لتأسيس نيروت التي شاع خلالها أن الأبناء المختفين في الحرب سيعودون إلى الاحتفال.
لكن يا لخيبة أملها عندما مرّ شهر الاحتفال الذي قضته جالسة أمام عتبة دارها وبيدها إكليلان من الزهور دون عودة هاتان وبافات. ومع ذلك، لم تفقد سيرينا يقينها قط رغم أنها ذوت حزنًا وتجعّد وجهها الأربعيني قبل أوانه.
وفي تلك الليلة الموعودة، قامت الأم فزعة بعد تعرضها لأحد الكوابيس وهرعت إلى شرفة المنزل تحدّق إلى مكان بعيد من المدينة. أيقنت أن شيئًا ما يحصل الآن، لكنها لم تتوقع قط أن هاتان وبافات كانا يقفان على شرفة الموت في اللحظة نفسها بعد أن أتمّا عامًا ونصف العام في السجن يخططان وينفذان ما ستراويه لاحقًا الكثير من النساء لأولادهن في قصص ما قبل النوم وما سيتفاخر بإجادة حكايته الكثير من الرجال في اجتماعات الشاي لأجيال متعاقبة.

ISBN 978-9953-93-104-3